حُسْنُ الخُلُقِ

يوسف الياس القرعاني

حُسن الخُلق

بقلم:

يوسف الياس القرعاني

الكويت ٢٠٢٢

مقدمة

بسم الله والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه والصلاة والسلام على من أرسله الله جل وعلا رحمةً للعالمين، ونسأل الله، سبحانه وتعالى، التوفيق والسداد في القول والعمل. بدايةً، نود التنويه بأن كتاب "حسن الخلق" يهدف إلى تسليط الضوء على سجية عظيمة من سجايا البشرية والتي قد يتحلى بها بعض الناس إضافة إلى توضيح أهمية هذا السجية ودورها في تمكين الإنسان من العيش حياة طيبة كريمة بعيدة عن الضغوط النفسية والمشاكل الاجتماعية. للتحلي بهذه السجية العديد من المميزات الأخرى التي تساعد الإنسان على تهذيب النفس والتخلص من الخصال السيئة مثل الحسد وبغض الآخرين لأسباب تافهة وقد لا تتجاوز هذه الأسباب مجرد اختلاف في وجهات النظر وإصرار كل فرد على رأيه. ومن تمتع بهذه السجية يكون أكثر مرونة من غيره وعادة ما يترفع عن سفاسف الأمور ويكون أكثر تقبلا لآراء الآخرين وأكثر احتراما لهم.

وغالبا ما يكون الأفراد الذين يتمتعون بهذه السجية أقرب إلى قلوب البشر وأقرب إلى خالقهم خاصة إذا صاحب حسن الخلق إيمان وإحسان فأولئك هم الصفوة الذين وعدوا بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا، وإنَّ مِن أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيهِقونَ). فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من أحب الناس إليه هم ذوو الأخلاق العالية وهم أيضا أصحاب الدرجات العالية في الجنة لحسن خلقهم وأنهم أقرب الناس مجلسا من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة.

ومن أهداف هذا الكتاب الكشف عن مقومات حسن الخلق وما يساعد عليه وكيف يستطيع الأفراد تهذيب أخلاقهم إن هم أرادوا ذلك

وسعوا لتحقيقه، فمجرد الإرادة لا تكفي وإنما يجب أن تُتبَع هذه الإرادة بعزيمة صادقة وعمل وإصرار على تحقيق ما نصبوا إليه. عموماً، القول لا يغني عن الفعل، بل لابد من الفعل حتى يبرهن على صحة القول ويثبته فقد يقول قائل أنا أكرم الناس، فيبقى قوله ما بين أخذ ورد حتى يأتي بفعل يُصّدِقُ قوله أو يُكّذِبه. ومن أحب شيئا سعى إليه وبذل له الجهد والوقت لتحقيقه فمن أرد تعلم شيئا كلغة جديدة مثلا فلن يتعلمها مالم يبذل الأسباب من دراسة ومتابعة وتحليل لاستخدامات هذه اللغة، فإن بذل هذه الأسباب قد يبلغ ما يصبو إليه، وإن لم يبذل الأسباب فسيبقى تعلم هذه اللغة مجرد حلم وأمنية بالنسبة له.

يركز الكتاب أيضا على الفضائل التي تتحقق بحسن الخلق وكيف يقود حسن الخلق صاحبه لبلوغ الدرجات العلا في الآخرة، وكيف أن حسن الخلق يساهم في تعزيز الراحة النفسية للأفراد الذين يتحلون به ويساهم في تمكينهم من الشعور بالاستقرار والطمأنينة لأن من حسن خلقه هو أبعد ما يكون عن الحسد ومتابعة أخبار الناس وتعقب زلاتهم فيرتاح ويريح غيره. لمثل هذه الأسباب، تلعب هذه السجية دوراً كبيراً في تعزيز الجانب النفسي وتقوية الأفراد وجعلهم أكثر مرونة وقدرة على مواجهة الصعاب والتغلب على مُنّغِصات الحياة.

ومن الأمور التي يبحث فيها الكتاب الشباب وحسن الخلق خاصة أن الشباب يحتاجون هذه السجية أكثر من غيرهم لأن طبيعة حياتهم وأنشطتهم ومرحلة النمو التي يمرون بها ومتطلباتهم وانشغالهم بمتطلبات الحياة والضغوط التعليمية والعائلية قد تبعدهم قليلاً عن هذه السجية الكريمة. وهنا تكمن أهمية دور الآباء في مساعدة أبنائهم لينشؤوا النشأة الصالحة التي يتمناها كل مسلم لشباب المسلمين. وقد أولى الإسلام أهمية كبيرة لصلاح الشباب لأن صلاحهم يعد بجيل صالح يقود الأمة بعد حين؛ لذلك استحق الشاب الذي ينشأ على عبادة وطاعة الله جل وعلا ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

كما يبحث الكتاب في عدة أمور أخرى مثل حسن الخلق بين الأفراد الذين اعتادوا على ركوب بعض المعاصي ومن ذلك نزع الحجاب بين بعض نساء المسلمين وتقليد غير المسلمين في عدد من الأمور مثل اللباس وقصات الشعر وتناول بعض المحرمات وما ثبت ضرره ثبوتا قطعياً كالتدخين والمسكرات والمخدرات وغير ذلك. أما فيما يتعلق ببعض نساء المسلمين ممن ابتلين ببعض المعاصي مثل نزع الحجاب وكشف الرأس رغم أنهن يتحلين بأخلاق حسنة بما في ذلك حسن التعامل وإتقان العمل والالتزام بكثير من العادات الحسنة، فلابد لهن من التفكير السليم لاستدراك ما يمكن استدراكه قبل أن تنتهي رحلتنا في هذه الحياة ثم لن تنفع ندامة على تفريط بعدها، ونسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولهن الهداية والتوفيق والسداد.

ويناقش الكتاب أيضا نواقض حسن الخلق وكيف أن بعض الصفات الأخرى أو التصرفات، التي تخالف تعاليم الإسلام، تساهم في نقض وهدم هذه السجية الكريمة إضافة إلى تقديم بعض النصائح لكافة الأفراد وحثهم على بذل كل الجهود الممكنة لتهذيب أخلاقهم بالقول والفعل والدعاء، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهمَّ كما حسَّنتَ خَلقي فحسِّنْ خُلُقي).

يوسف الياس عبدالله القرعاني

تمهيد

نحـن بصـدد الحديـث، بإذن الله تعالى، عن سـجية عظيمـة وخصلة جميلة مـن خصـال الإنسـان والتـي يجدر بالنـاس عامة والمسـلمين خاصـة التحلي بها، ألا وهـي حسـن الخلـق. لهـذه السـجية أهميـة كبـيرة في حياة البـشر ولها كثير مـن الفوائـد الإيجابيـة كتعزيـز المـودة بـين النـاس وبنـاء مجتمعـات صالحـة ومتماسـكة؛ لـذا فقـد اعتنـى الإسـلام بحسـن الخلـق عنايـة فائقـة لمـا لـه من أهميـة كبـيرة في إصـلاح حيـاة المسـلمين ولأنـه مفتـاح لـكل خـير ودافـع لكثير مـن المفاسـد والـشرور. وبحسـن الخلـق ترتقـي الأمـم ويـزداد احـترام النـاس لبعضهـم ويسـود الإخـاء واللطف، والعكس صحيح إذ إن سـوء الخلق يسـاهم في نـشر الشـحناء والبغضـاء بـين أفـراد المجتمع.

مـن هـذا المنطلـق، يتوافـق حسـن الخلـق مع كل مـا هو جميـل ويتناقض مـع كل مـا هـو قبيـح؛ وذلـك لأن حسـن الخلـق يتضمـن المعاملـة الحسـنة للآخريـن وحسـن التـصرف والكلام وكذلك حسـن القـول والفعل، بـل ويتعدى ذلـك إلى إتمـام العمـل عـلى الوجـه الأكمـل لأن مـن حسـنت أخلاقـه لا يـرضى بمـا هـو ناقـص ويسـعى دائمـا لتحقيـق الكـمال في تصرفاتـه وأفعالـه وأقوالـه ومختلـف جوانـب حياتـه. عـلاوة عـلى ذلـك، يسـمو الخلـق الحسـن بصاحبة ليبلغـه الكـمال في الحيـاة الدنيـا ويبلغـه الدرجـات العلا في الآخـرة، فهنيئا لمن تحـلى بهـذه السـجية العظيمة.

مـن حيـث المعنـى، لا يخفـى مفهـوم الحسـن عـلى أحـد إذ هو ضـد القُبح وكلـما مـا هـو مسـتهجن فالحُسـنُ هـو الجـمال ويقال وجـه حسـن أي جميل ويقـال أيضـا سـلوك حسـن أي جيـد ومقبـول مـن كافـة الجوانـب. أمـا الخلق فهـو السـجية والأدب والتـأدب مـع الآخريـن. ووفقـا لذلك، فإن حسـن الخلق يعنـي السـجية أو السـجايا الحميـدة والجميلـة التـي تميـز بعـض النـاس عـن بعضهـم عندمـا يتحلـون بهـا فتجعـل لهـم القبـول في قلـوب الآخريـن وتزيـد

مـن احـترام النـاس لهـم. إن حسـن الخلـق يتطلـب عـدداً مـن الخصـال مثـل الحلـم والصـبر والعفـو إضافـة إلى أمـور أخرى كثـيرة كطلاقة الوجـه وصلة من وجبـت لـه الصلـة كصلـة الأرحـام وحسـن الصحبـة للأصدقـاء والأصحـاب في الحـل والترحـال، وغـير ذلك.

لقـد كان حسـن الخلـق والأخلاق العاليـة الرصينة من السـجايا المهمة التي اعتنـت بهـا البشريـة منـذ فجـر التاريخ وركـز عليه قدامـى العلماء والفلاسـفة لمـا لـه مـن دور مهـم في بنـاء المجتمعـات وتعزيـز الأواصر الاجتماعيـة. ومـن الفلاسـفة القدامـى الذيـن اعتنوا بحسـن الخلـق أفلاطون حيث أسـس نظريته المشـهورة في الأخـلاق والتـي تبنـت فكـرة أن كل عمـل أدبي يجـب أن يقـدم درسـا أخلاقيـا يسـتفاد منـه. وكذلـك تمتـع العـرب في الجاهليـة بعـدد مـن السـجايا المميـزة التـي تبرهـن عـلى محاسـن الأخـلاق مثـل إغاثـة الملهـوف والكـرم والطلاقـة خاصـة عنـد اسـتقبال الضيـوف وهـذا يمثـل سـجية حسـنة وركيـزة مهمـة مـن محاسـن الأخـلاق.

عندمـا جـاء الإسـلام وضـع حسـن الخلـق عـلى سـلم الأولويـات وجعـل الأفضليـة في الدنيـا والآخـرة لمـن حسـنت أخلاقهـم، كـما رغَّـبَ الإسـلام جميع المسـلمين وحثهـم عـلى التحـلي بهـذه السـجية والأخـذ بالأسـباب التـي تـؤدي إليهـا. وقـد صـح عـن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم أنـه قـال: (إنَّ مِـن خِيَارِكُـمْ أَحْسَـنَكُمْ أَخْلَاقًـا)، أي أن الخيريـة جُعِلـت لمـن حَسُـنَ خلقـه. وفي هـذا الحديـث الشريـف ترغيـب عظيـم في هـذه السـجية الحسـنة التـي تعـد أحـد الأسـس المهمـة لبنـاء الحيـاة الكريمـة التي يتمناهـا كل إنسـان على وجه البسـيطة.

حسـن الخلـق ينهـى أيضا عـن كل الأمور التي تؤثر سـلبا على حيـاة الأفراد الاجتماعيـة ويسـمو بهـم حتـى يكونـوا صفـوة مجتمعاتهـم، فلن تجد فاسـدا، أو مرتشـيا، أو ظالمـا، أو سـارقا، أو غيرهـم ممـن اعتـادوا عـلى النقائص بين من حسـنت أخلاقهـم؛ وذلـك لأن خلقهـم الحسـن يمنعهـم عـن كلـما هـو قبيـح

ومذمـوم ويحثهـم عـلى كلما هو حسـن ومحمود. لمثل ما سـلف من الأسـباب، اسـتحقت هذه السـجية اهتمام الكثير من الناس بشـكل عام والعلماء بشـكل خـاص عـلى مـر التاريـخ لأنهـم عرفـوا قيمتهـا الحقيقيـة ودورهـا في تحسـين نوعيـة الحيـاة التي يحياهـا الناس.

الفصل الأول

أهمية حسن الخلق

لا شك أن حسن الخلق سجية كريمة وهي أحد أهم السجايا التي قد يتمتع بها الإنسان في حياته لما لها من دور مهم في تحقيق الاستقرار الأسري والاجتماعي وبناء مجتمعات متماسكة قائمة حب التعاون والإنجاز الذي يساهم دائما في تقدمها وازدهارها. تكمن أهمية حسن الخلق أيضا في تعزيز الاحترام والمودة بين مختلف أفراد المجتمع، فمن حسنت أخلاقهم من المسلمين غالبا ما يحترمون الآخرين ويحسنون الظن بعامة المسلمين ويراعون ذممهم، فكل مسلم له حق وذمة وأولها حق أخوة الإسلام، هذا إن لم يكن قريباً أو جاراً.

مَنْ حَسُنَ خُلقِهم دائما يراعون مشاعر الآخرين ويتجنبون أيضا سوء الظن ولا يتهمون الناس دونما بينة أو دليل قاطع وينزلون الناس منازلهم. وعندما يتحلى الناس بهذه السجية الكريمة، فإنهم يعيشون طيبي النفوس محبين للخير لهم ولغيرهم وأبعد ما يكونوا عن سفاسف الأمور ويَربَون بأنفسهم عن كافة الخصال السيئة مثل الحسد والكذب والرياء ومتابعة زلات الآخرين وكل ما يساهم في تقويض أخلاقهم الحسنة. وبحسن خلقهم هم أيضاً يلعبون دوراً مهما في صلاح من حولهم لأنهم عندما يعاملون الناس باحترام فإن الناس الآخرين سيعاملوهم بالطريقة نفسها، ومن ثم سينتشر هذا التعامل الحسن بين عدد أكبر من الأفراد وقد يصبح حسن الخلق سجية لغيرهم، لمن لم يتحل به من قبل، بسبب تأثرهم بسلوك من حَسُنَ خلقه.

لحسن الخلق فوائد جمة لأنها سجية متعدية يستفيد منها صاحبها وغيره لما تتضمنه من الكثير من الأمور الطيبة وتساهم في سمو المجتمعات؛ ولأن حسن الخلق يساعد على بناء بيئة صحية قائمة على التعامل الحسن والاحترام المتبادل. ولما لهذه السجية من أهمية، فإن على المسلم أن يطمح دائما إلى إتمام أخلاقه وإيمانه وأن يكون من المحسنين وأن يجعل من حسن خلقه سفيرا له بين الناس من حوله فقد يتأثر به بعض أو كثير من الناس.

إن أول من يتأثر بحسن خلقك هم المقربون منك وهم أفراد عائلتك، فبحسن خلقك أنت تعينهم على صلاح أمرهم حتى وإن لم تتحدث إليهم كثيراً في هذا الأمر؛ وذلك لأن حسن الخلق سلوك مكتسب قد يكتسبه الإنسان من أبيه أو أمه أو جاره أو صديقه أو من بيئته التي من حوله.

ومما يتوجب علينا، نحن كمسلمين، ألا نستهين بأهمية حسن الخلق وأن نعمل على تهذيب سلوكنا وأن نجتنب الفاحش من القول في كل مكان وخاصة في البيت لأن الأبناء سينشؤون ويعتادون على ما أَلِفوه وعلى ما تعودوا سماعه. إذا تَعّوَدَ الأبناء على سماع الكلام الطيب من والديهم، فإنهم سيقلدونهم وسيشعرون بالحياء إذا نطقوا بكلمةٍ واحدةٍ غير لائقة، وأما إذا ما اعتاد الأبناء على سماع والديهم يتكلمون كلاما غير لائق فإنهم سيستخدمون نفس الكلمات في حضورهم وأمام أعينهم وفي غيابهم من باب أولى. من أحب أن يربي أبناءه التربية الصحيحة فعليه أولاً بحسن الخلق فإنه الخطوة الأولى لتوجيه الأبناء في المسار الصحيح. إن أهمية حسن الخلق نابعة من كونه أحد أول خطوات الإصلاح وهي التي تبدأ من الشخص نفسه ثم العائلة وصلاح العائلة يُعَدُ أولى خطوات إصلاح المجتمع ككل.

كن سفيرا للمسلمين وغير المسلمين بحسن خلقك فإن استطعت التأثير إيجابيا على أحد فربما كان لك به أجراً عظيماً خاصةً إذا كان هذا الشخص له تأثير على غيره لأنه سيساهم في نشر هذه الخصلة الجميلة أو نشر أي من أفعال الخير بين المزيد من الناس. لقد أشارت قصص عديدة إلى المساهمة العظيمة للتجار المسلمين في إسلام إندونيسيا، علما بأن أولئك التجار كانوا يسافرون إلى ذلك البلد من أجل التجارة وليس من أجل الدعوة، لكن أخلاقهم الحميدة أثرت تأثيرا كبيراً في ذلك البلد. تَنسِبُ عدد من الروايات انتشار الإسلام إلى التجار المسلمين لأن الناس هناك تأثروا بأخلاقهم. وقبل دخول الإسلام إلى تلك البقاع من المعمورة، كان من أبرز الديانات السائدة البوذية والهندوسية، وبدأ الإسلام ينتشر تدريجيا في تلك البقاع وازدادت

وتيرة انتشاره مع حلول القرن الخامس عشر الميلادي عندها بدأ الناس يعتنقون الدين الحق على نطاق واسع.

عندما نتأمل هذه القصة نستخلص منها دروساً عجيبةً خاصة أن التجار المسلمين ربما لم يخطر ببالهم مدى التأثير الذي سيتركونه على العديد من الممالك هناك. علاوة على ذلك، لو سُئِل أحدهم في تلك الأيام عن إمكانية نشر الإسلام في تلك المناطق ربما لم يتوقع أن مثل هذا الأمر يمكن له الحدوث، بل وربما لم يرق طموحه إلى نشر الإسلام بذلك الشكل وأن يكون له ذاك الصدى. أما الآن وبعد مئات السنين، فقد تجاوزت نسبة المسلمين في إندونيسيا كثيراً من الدول الإسلامية والعربية التي كانت مهداً لانطلاق الفتوحات وإرساء معالم الدين.

في أيامنا هذه، تمثل إندونيسيا أكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان الذي تجاوز ٢٧٤ مليون نسمة، وتبلغ نسبة المسلمين منهم أكثر من ٨٨٪، وقد دخل الإسلام هذه البلاد دونما حرب أو قتال، بل بحسن أخلاق التجار ومعاملاتهم الصادقة. ومن الدروس المستفادة أيضا، أن أخلاقك الحسنة قد تؤثر إيجابيا بشخص ما وذلك الشخص يؤثر إيجابيا على آخرين فتكون بحسن خلقك قد فعلت فعلا عظيما دون أن تشعر به كما حصل مع أولئك التجار. ومن هذا المنطلق، يجب على المسلم أن يفعل الخير أينما كان حتى إن كان لا يتوقع من ذلك تأثيراً كبيراً؛ لأنه لا أحد يعلم يقينا ما سيحدث، إلا الله سبحانه وتعالى، فيجب أن يكون المسلم سفير خير وقدوة حسنة في كل تصرفاته وأفعاله وأن تكون نيته خالصة لوجه الله جل وعلا وأن يعمل بمقتضى ذلك.

ترتبط أهمية حسن الخلق أيضاً بعدد من الخصال الأخرى التي عادة ما يتحلى بها من حَسُنَ خلقه مثل الحياء والصدق. أما الحياء، فله صلة وثيقة بحسن الخلق و(الْحَياءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيْرٍ)، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن كان على حياء، فإنه يستحي أن يأتي بما ينافي الأخلاق الحميدة،

بـل ويحـرص دائمـا عـلى عـدم إيـذاء وإزعـاج الآخريـن لحيائـه وحسـن خلقه. ومـن حسـن الخلـق الاعـتراف بالخطـأ والاعتذار عنـه عند وقوعه لأن الإنسـان غـير معصـوم مـن الخطأ وما مـن إنسـان إلا ويخطئ، وصاحب الخلق الحسـن يبـادر إلى الاعـتراف بالخطـأ والعمـل عـلى تصحيحـه بعـد وقوعـه مـما يقـوي أواصر التعـاون والـود بـين كافـة الأشـخاص وخلافـه يولـد الشـحناء والبغضـاء. وكل هـذه الأمـور تؤكـد عـلى أهميـة حسـن الخلـق ودوره في تحسـين البيئـة الاجتماعيـة وصقـل سـلوك الأفـراد وجعلهـا أكـثر لطفـا واحتراما. وقـد صح عن رسـول اللـه صلى الله عليه وسـلم أنـه قال: (إنمـا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مـكارمَ الأخلاقِ)، حيـث يبـين هـذا الحديـث الشريـف المكانـة السـامية للأخلاق وحسـن الخلق وأهميتهـا في ديننا الإسـلامي.

أمـا الصـدق فهـو خصلـة مـن الخصـال التـي ترتبـط ارتباطـاً وثيقاً بحسـن الخلـق، وخلافـه الكـذب وهـو مـما ينقـض الأخلاق الحسـنة. من حسـن خلقه يسـتقبح الكـذب ويحـب الصـدق ولا يـرضى لنفسـه غـيره. في الحقيقـة، أي إنسـان سـوي يكـره الكـذب لأنـه عـادة سـيئة تشـوه الوجـه الحسـن للإنسـان ويقلـل مـن احـترام الآخريـن له إذا مـا علموا عن كذبـه. وكانت هـذه الخلصة مـن الخصـال الممقوتـة عنـد العـرب في جاهليتهـم، أي أنهـم كانـوا يكرهـون هـذه الخلصـة حتـى قبل الإسـلام. وعندما جاء الإسـلام أقر الصـدق وحبب فيه وحـذر كافـة أتباعـه مـن الكـذب وعواقبـه الوخيمة.

ومـن القصـص التـي رواهـا العرب عـن حبهم للصـدق وكرههـم للكذب ما روي عـن أبي سـفيان قبـل إسـلامه، عندما كان عـلى الكفر، عندما سـأله قيصر، ملـك الـروم، عـن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم. في ذلـك الموقـف، سـأل قيـصر أبـا سـفيان عـددا مـن الأسـئلة فأجابـه أبـو سـفيان عنهـا بصـدق حتـى بـدى وكأنـه يمـدح رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسـلم رغم أنـه لم يجـاوز قول الحـق. وعندمـا خـرج مـن لقـاء قيـصر سـأله مرافقـوه لمـا قـال ذلـك الـكلام، فأجابهـم بقولـه الشـهير: أتريـدون أن تقـول العـرب كـذب أبـو سـفيان! لقـد

فضل أبو سفيان قول الصدق على الكذب حتى لا يوصف بهذا الصفة الدنيئة رغم أنه كان بحاجة ماسة لكتمان الحقيقة وتشويه صورة المسلمين لأنه كان عدوا لهم في تلك الأيام إلا أنه أردف قائلاً: "فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا علي كذبا لكذبت عنه". وفي هذا الكلام إشارة إلى أن حياء أبي سفيان ومخافة أن ينعت بالكذب هو الدافع لقوله الحق وقد قال الحق رغم أنه لم يرد قوله، وهذا أيضا يبين أن للصدق وقع جيد على الأسماع دائما وتتلقاه الأنفس بانشراح.

ومن الأسئلة التي سألها قيصر لأبي سفيان قوله: هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ ويقصد بذلك قبل الإسلام وإعلان الدعوة إلى الله. وسأله أيضا إن كان يغدر وكانت أسئلة قيصر تهدف إلى التعرف على شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك سأله عن بعض الأمور التي لا يفعلها الأنبياء وبعض الصفات التي لا تليق بهم صلى الله عليهم وسلم جميعا ومن ذلك الكذب والغدر.

وقد قال قيصر إن من لا يكذب على الناس لن يكذب على الله وأن الغدر صفة لا تليق بالأنبياء، وسأل عما يأمر به فقال أبو سفيان: يأمرنا بالصلاة والصدق والصلة. عندها تأكد قيصر، بناء على كلام أبي سفيان، بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رسول أرسله الله سبحانه وتعالى إلى الناس، وعندها قال قولته الشهيرة لأبي سفيان: "إن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين"؛ أي سيملك رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض التي كان فيها قيصر، وهي بلاد الشام.

هناك قصص لا تحصى عن حسن الخلق الذي تحلى به كثير من العرب قبل الإسلام، ولا عجب أن يتحلى به المسلمون لأن الإسلام شدد عليه وحبب الناس فيه وجعله على رأس الخصال الطيبة التي يمكن للمسلمين التحلي بها. ومن هذه القصص ما روي عن عنترة بن شداد العبسي في أبيات من إحدى قصائده عندما قال:

وَأَغَضُّ طَـرفي مـا بَــدَت لي جــارَتي   حَتّى يُــــواري جــــارَتي مَأواهــــا

إِنّي اِمـرُؤٌ سَمــحُ الخَليقَــةِ ماجِــدٌ   لا أُتبِعُ النَفـــسَ اللَجــوجَ هَواهــــا

تبـين هـذه الأبيـات شـدة حيـاء الشـاعر واحترامـه لجيرانـه وكل ذلـك نابع مـن حسـن خلقه. لذلك فإن حسـن الخلـق يحمل النفس على السـمو والرفعة ويسـاعد الإنسـان عـلى مغالبـة ومكابدة هواه ليكـون الإنسـان الصالح المصلح الـذي يؤثـر عـلى غـيره بحسـن سـلوكه وأخلاقـه. وبهـذا يحـترم الجـار جـاره ويأتمنـه عـلى عرضـه ومالـه، إن حسـن خلقـه، مما يسـاهم في بنـاء مجتمعات مثاليـة يحـترم كل فـرد فيها أفـراد مجتمعه ويكونون سـندا وذخـرا لبعضهم في الشـدائد وعونـا في الأفـراح والأتراح.

الفصل الثاني

مقومات حسن الخلق

مـن أعظـم الأمور التي تسـاهم في تهذيـب وصقل الخلق هـي الإيمان بالله تعـالى والإحسـان في عبادتـه، إذ إن المؤمـن دائمـا يكـون طيـب النفـس محبـا للخـير لـه ولغـيره؛ لأن إيمانـه يحثـه على فعل ذلـك ويحثه على مـكارم الأخلاق وأن الإسـلام ربـط الإيمـان بحـب الخـير لإخواننـا مـن المسـلمين، فقـد صـح عن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم أنـه قـال: (لَا يُؤْمِـنُ أَحَدُكُـمْ، حتَّـى يُحِـبَّ لأَخِيـهِ مـا يُحِـبُّ لِنَفْسِـهِ). عـلاوة عـلى ذلـك، لا يجتمـع كـمال الإيمـان وسـوء الخلـق في شـخص لأن سـوء الخلـق نقيصـة لا تليق بمـن كمل إيمانـه، ولأن من كمـل إيمانـه يعلـم يقينـا أهميـة حسـن الخلـق والصـبر وحـب الخـير للآخرين فيبتعـد عـن كل الأسـباب المؤديـة إلى مفاسـد الأخـلاق أو سـوء خلقه.

ومـن مقومات حسـن الخلق حسـن التـوكل على الله، فهـو مفتاح كل شيء جميـل ومفتـاح كل خـير وهـو المعين على نوائـب الدهر والمسـلي للنفوس عند الشـدائد، فعندمـا نتـوكل عـلى اللـه ونحسـن الظـن بـه تهـون علينـا الخطوب والمصائـب لأننـا نعلـم أن مـا أصابنـا لم يكن ليخطئنـا وأن ما كتبه الله سـبحانه لنـا أو علينـا سـوف يتـم دونمـا نقصـان أو تأخـير، ومـن تـوكل عـلى اللـه فقـد أحسـن العمـل. ومـن تـوكل على اللـه هانت عليـه المصاعب لأنه يعلـم أن كل مـا يحـدث لنـا هو مـن تقديـر الله سـبحانه وتعالى فإن صـبر وحمد اللـه أُجِر، وإن جـزع لم يسـتفد شـيئا سـوى الجـزع والاضطراب والقلـق النفسي.

مقومات حسـن الخلق عديدة، وهي تشـتمل على الكثير من الخصال التي تسـاعد الإنسـان عـلى السـمو بأخلاقـه مثل الصـبر والحلـم والتواضـع والصفح والتسـامح والحكمـة والـتروي في معالجـة الأمـور حيـث تعـد هـذه الخصـال خـط الدفـاع الأول لإبـراز الوجـه والخلق الحسـن للإنسـان. إن الإنسـان يعرف وقـت الشـدائد أكـثر مـن غيرهـا وفي المواضـع التـي تحتـاج إلى رباطـة جـأش، ففـي مثـل هـذه المواقـف يظهـر المعـدن الحقيقي للإنسـان ويبرز دور حسـن الخلـق بمسـاعدة الإنسـان على القيـام بالتصرفـات المحمـودة والصحيحة خلال المواقـف التـي يتعـرض لهـا. إن اسـتطاع الإنسـان أن يحلـم أو يصـبر ويكظـم

غيظه في مثل هذه المواقف، خاصة المواقف التي لا تسره، فقد أتى بخصال تدل وتؤكد على حسن خلقه.

إن حسن التعامل مع الوقائع والأحداث تبين مرونة الإنسان وتميزه في التعامل مع الأمور الطارئة، فالحليم هو الرابح وغالبا ما تكون كفته هي الراجحة وغالبا ما يكون الطرف الآخر من المعادلة وهم الطائشون والمتسرعون، الذين ينتابهم الغضب الشديد أثناء هذه الوقائع، هم الخاسرون وهم أكثر الناس عرضة للأخطاء وكثيرا ما يخطئون التصرف لأن الإنسان يغلب عليه سوء التصرف وقلة التفكير في عواقب الأمور أثناء الغضب. وهنا أيضا يبرز دور حسن الخلق في تهذيب السلوك وتعزيز التسامح والصبر الذي قد يبلغ منتهاه خاصة عندما يصبر الإنسان على الأذى من قبل الناس ويكون صبره هذا حلماً لا ضعفاً، أي أن هذا الإنسان يستطيع أن ينفذ غضبه على من أغضبه لكنه يترك ذلك بسبب حسن خلقه وحبه لما وعد الله به الصابرين والكاظمين الغيظ.

من أدرك هذه الأمور كان أصبر على الخطوب وأقوى نفسا للتغلب على العقبات ومثال رابح على كافة الأصعدة في الدنيا والآخرة. فربحه العاجل هو المتابعة وإن توالت العقبات، إذ إن التوفيق والنجاح سيأتي بعدها، فيكون أكثر إصرارا وتحديا على تحقيق ما يطمح إليه، وجزاؤه الآجل عند ربه عظيم إذ قال الله سبحانه وتعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) – الزمر/١٠. والمتوكلون على الله جل وعلا هم أقرب الناس إلى النجاح لأنهم لا ييأسون، بل يتابعون المسير نحو القمة والنجاح ولن تثنيهم العقبات والإخفاقات المؤقتة لأنهم على يقين أن استمرار المحاولات ستنتهي بتحقيق النجاح.

من ناحية أخرى، حسن الخلق، إن لم يجبل الإنسان عليه، أي أن الله سبحانه وتعالى مَتّعه بحسن الخلق منذ الصغر واستمر على ذلك، فهذه السجية العظيمة يمكن تحصيلها، ولكن ليس بسهولة إذ إنها تحتاج إلى الصبر

ومجاهـدة هـوى النفـس خاصـة في بداية الأمـر لمن لم يتحل بها مـن قبل وأراد أن يعـدل من سـلوكه وأن يُحّسِـن من خلقـه. ومن رام هذه السـجية العظيمة وجـب عليـه الأخذ بالأسـباب التـي تمكنه منها كالبيئة المناسـبة وبشـكل خاص الصحبـة الصالحـة فالمـرء من جلسـيه، كما قـال طرفة بـن العبد:

عَــنِ المَرءِ لا تَسـأَل وَسَـل عَن قَرينَهُ فَكُــلُّ قَريــنٍ بِالمُقــارِنِ يَقتَــدي

فعندمـا يجالـس الشـخص أشـخاصا آخريـن لا يتمتعـون بحسـن الخلـق يتوجـب عليـه نصحهـم والعمـل على تحسـين أخلاقهـم وإن لم يفلـح فعليه إما هجرهـم أو تقليـل اللقـاء بهـم حتـى يتمكـن مـن مجاهـدة نفسـه ويسـتعين بالبعـد عنهـم عـلى التغلـب عـلى هـواه. ومـن ذلـك، تصبـير النفـس بالفوائـد العظيمـة التـي يحققهـا حسـن الخلـق بمـا في ذلـك الدنيويـة والأخرويـة. ومن الأمـور المهمـة، تعويـد النفـس عـلى عـدم الجـزع وتقويتهـا عنـد مواجهـة الصعـاب إذ إن مـا قـدر اللـه سـبحانه سـيحدث شـئنا أم أبينـا ولم يغـير عـدم صبرنـا أو جزعنـا مـن النتائـج.

ومـن مقومـات حسـن الخلـق أيضا اسـتبدال جلسـاء السـوء بجلسـاء ممن حسـنت أخلاقهـم حتـى يعينونه عـلى المهمة التي أقـدم عليها ويكونون سـندا لـه، وذلـك عكـس جلسـاء السـوء فإنهـم قـد يؤثـرون عليه سـلبا وربمـا يثنونه عـن إتمـام مـا شرع بـه من رحلة نحو حسـن الخلـق. فقد قال رسـول الله صلى اللـه عليـه وسـلم: (المرءُ عـلى دينِ خليلِـه فلينظـرْ أحدُكم مَـن يُخالـلُ).

ولا يخفـى عـلى أحـد تأثـير الأصدقـاء عـلى بعضهـم فقـد يُنجِـي الصديـق صديقـه وقـد يُهلـك الصديـق صديقـه فيكـون مـن الأشـقياء في الدنيـا والآخرة ومثـال ذلـك مـا حـدث لعقبـة بن أبي معيـط. لقـد كان عقبة صديقـا لأمية بن خلـف الـذي كان غائبا في الشـام حين أسـلم عقبـة، وعندما عاد أميـة وبَلَغَهُ أن عقبـة قـد أسـلم غضب غضبا شـديدا وقال لـه لا يرضيني إلا أن تشـتم محمدا، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وتبصـق بوجهـه. وبعـد أن فعـل عقبـة، عدو اللـه، ما

طلبه صديقه كان قد انقلب من نعمة الإسلام إلى جحيم الكفر وقُتِل بعد أن أسر في غزوة بدر وأنزل الله جل وعلا به الآية الكريمة: (وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يا ويْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا) - الفرقان/٢٧/ ٢٩/٢٨.

وقد يكون الصديق الصالح سببا في هداية صديقه أو تثبيته على الحق ومناصرته كما حدث مع الفتية الذين ذكرهم الله جل وعلا في سورة الكهف، فالله سبحانه وتعالى خَلّدَ صحبتهم في القرآن الكريم، بل حتى كلبهم الذي تبعهم ذُكِر معهم. لمَّا ضاقت عليهم الأرض لما واجهوه من ظلم وخوف على إيمانهم بسبب الملك الظالم قرروا أن يهجروا بيوتهم في القرية وتوجهوا إلى الكهف فجعلهم الله سبحانه تعالى آية للعالمين إلى قيام الساعة. وأول أمر عملوا به هو التوكل على الله، إذ قال جل وعلا: (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) – الكهف/١٠. وبعد التوكل على الله جاءهم المدد (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ)، وبعد الإيمان زادهم الله تعالى هدى (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى). لقد أدرك الفتية أن خلاصهم من الظلم هو بمفارقة الظالمين لذلك قالوا: (إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا).

ومن القصص التي تؤكد التأثير الإيجابي لصحبة الأخيار قصة مالك بن الريب وسعيد بن عثمان بن عفان رحمهم الله تعالى جميعا. كان لمالك بن الريب قصة عجيبة، فقد صحب اللصوص وقطاع الطرق وعمل معهم في هذه الأعمال الدنيئة حتى أنه صاحب شظاظا الظبي الذي ضربت العرب به المثل في السرقة، فقالوا: "ألص من شظاظ!". وكانت هذه عادة العرب إذا اشتهر أحدهم في أمر ضربوا له مثل كقولهم: "أكرم من حاتم!". لقد اشتهر مالك بن الريب بقطع الطريق حتى أصبح الشخص المطلوب الأول في زمانه وذلك لعدد من الولاة كوالي مكة والمدينة مروان بن الحكم ووالي البصرة زياد بن أبيه وغيرهم.

ولكن من شاء الله له الهداية هيأ له الأسباب التي تعينه على ذلك، فبعد طلب الولاة لمالك بن الريب ضاقت علية الأرض بما رحبت حتى قابله سعيد بن عثمان بن عفان، رضي الله عنهم، وأقنعه بأن هذه الأفعال لا تليق بفارس مثله ثم اصطحبه معه في الجهاد وكان من أبرز المشاركين في فتح بلاد ما وراء النهر وتحديدا بخارى وسمرقند اللتين أصبحتا فيما بعد من أبرز المراكز الإسلامية والثقافية.

الشاهد هنا أن الالتزام بتعاليم الدين قد غير حياة هذا الفارس رأسا على عقب وتحول من قاطع للطريق ومفسد في الأرض إلى مجاهد وفاتح قل مثيله. وهو أيضا الشاعر المجيد وتعتبر مرثيته لنفسه من أجود قصائد الرثاء في الأدب العربي، وقال فيها:

أَلَم تَرَني بِعتُ الضَلالَةَ بِالهُدى وَأَصبَحتُ في جَيشِ اِبنِ عَفّانَ غازِيا

وَأَصبَحتُ في أَرضِ الأَعادِيِّ بَعدَما أَرانِيَ عَن أَرضِ الأَعادِيِّ قاصِيا

دَعاني الهَوى مِن أَهلِ أَودَ وَصُحبَتي بِذي الطَّبَسَينِ فَالتَفَتُّ وَرائِيا

أَجَبتُ الهَوى لَمّا دَعاني بِزَفرَةٍ تَقَنَّعتُ مِنها أَن أُلامَ رِدائِيا

أَقولُ وَقَد حالَت قُرى الكُردِ بَينَنا جَزى اللَّهُ عَمراً خَيرَ ما كانَ جازِيا

توفي رحمه الله تعالى خلال خلافة معاوية، رضي الله عنهم جميعا.

ومن مقومات حسن الخلق مجاهدة النفس والشيطان، فكلاهما يدعوان إلى اتّباع الهوى وما ترتضيه النفس، وإن كان في ذلك المعاصي. وعلى الإنسان أن يحذر ويراقب نفسه لأن الله جل وعلا يراه ويسجل عليه كل صغيرة وكبيرة وسيحاسبه على ما اقترفت يداه. وقد أحسن القحطاني، رحمه الله تعالى، عندما قال:

وإذا خَلَـــوتَ بِرِيبَـــةٍ في ظُلمَـــــةٍ والنَفسُ داعيَـــــةٌ إلى العِصيـــــانِ

فاِستَحيِ مِن نَظَرِ الإِلَهِ وقـــل لهـــا إنَّ الَّـــذي خَلَـــقَ الظَـــلامَ يَرانـي

فالنفس على الأغلب أمارة بالهوى وما يشتهيه الإنسان، كما قال الله جل وعلا في القرآن الكريم: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ) – يوسف/٥٣. أما الشيطان فهو يعمل على تخذيل الإنسان عن كل خير وعن كل عمل صالح، فلابد من الجد في مجاهدة النفس والشيطان لتحقيق ما نصبوا إليه.

وعلى المسلم أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى يراه وأن ملائكته تدون كل حركاته، حسنة كانت أم سيئة، فإذا استشعر المسلم هذه الأمور يرقى بإيمانه حتى يجتنب ما حرم الله تعالى ويفعل ما أُمر به ليسعد في الدارين، الأولى والآخرة. وهناك أيضا بعض النقاط التي لابد من توضيحها في مجاهدة النفس، وهي أن الأمور دائما تبدوا صعبة في البداية، ولكن مع المداومة عليها تصبح من الأمور الاعتيادية اليسيرة التي لا تحتاج إلى المشقة. ما نحتاجه فقط هو التوكل على الله وحسن الظن به والعمل على تقوية إيماننا وزيادته لنكسب رضا ربنا سبحانه وتعالى.

وهناك العديد من المقومات الأخرى لحسن الخلق مثل الأمانة والأناة وهن من الخصال التي حث عليها الإسلام، ومن الخصال الدالة على حسن الخلق. فالأمانة هي حفظ الحقوق وردها إلى أهلها والصدق والإخلاص في العمل والوفاء بالعهود والمواثيق، وضدها الخيانة التي هي خصلة ممقوتة لا تليق بمؤمن ولا مسلم. وللأمانة دور عظيم في زيادة تماسك المجتمع وتوثيق الأمن. أما الأناة فهي ضد العجلة وهي من الحلم ومن ذلك التفكر في عواقب الأمور وتعني أيضا التحقق من الأمور والابتعاد عن العجلة وإصدار الأحكام أو الآراء قبل التفكر بالأمر جيداً.

عنـد التفكـر في هـذه المقومات نجد أن الإسـلام يحث عليهـا جميعا ويدعو المسـلمين إلى التمسـك بهـا لأن هـذه المقومـات تصنـع الرجـال وتجعـل منهـم أناسـا صادقـين، ونافعـين، وناصحـين لأنفسـهم، ولغيرهـم. وفي الوقـت ذاتـه، تسـاهم هـذه المقومـات في تنقيـة النفـوس وإعانـة الأفـراد للتحـلي بحسـن الخلـق وتجعـل منهـم أناسـاً محبـين للخير وصادقـين قولا وفعلا وممـن يتركون بصمـة إيجابيـة في كل ناد مـن أندية مجتمعاتهم وكذلك المسـاهمة في نهضتها وبنائهـا وتنميتها.

الفصل الثالث

ثمرات حسن الخلق

ودوره في بلوغ الدرجات العلا

لحسن الخلق ثمرات عظيمة وفضائل جليلة منها العاجلة، أي ما يتم قطافها في الحياة الدنيا ومنها الآجلة، أي ما يتم قطافها في الآخرة. أما في الحياة الدنيا، فإن من حسن خلقه فهو أقرب الناس إلى قلوب الناس وهو أول من يكسب ود واحترام الآخرين وهو الشخص الموقر الذي يحترمه الناس ويتمنوا قربه ومصاحبته. كما أن حسن الخلق يشرح صدور الناس ويغرس فيهم القبول لمن حسن خلقه. أما في الآخرة فجزاؤه أجل وأعظم؛ لأن حسن الخلق هو الطريق إلى بلوغ الدرجات العلا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصائمِ القائمِ). في هذا الحديث العظيم إشارة إلى فضل حسن الخلق إذ إن من حسن خلقه يبلغ درجة المكثرين في العبادات وما يصاحبها من جهد ومشقة خلال الصيام والقيام، فيكون وإياهم سواء في الدرجة رغم أنه لم يبذل الجهود التي بذلوها، ويكون قد بلغ ذلك بحسن الخلق الذي حباه الله جل وعلا إياه.

إن حسن الخلق من خصال الأنبياء صلى الله عليهم وسلم جميعا وقد مدح الله جل وعلا خلق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال في محكم تنزيله: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) – القلم/٤. والأنبياء هم خير البشر ويجدر بباقي البشر التأسي بهم والسير على خطاهم والتحلي بالخصال التي كانوا يتحلون بها قدر ما أمكن. إنهم هم القدوة الحقيقية لباقي الناس ومن أحبهم واقتدى بهم وسار على نهجهم فقد أفلح ونجا، وربما كان رفيقهم في الآخرة. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عندما سأله رجل عن الساعة ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل، فقال: (وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟)، فقال الرجل: (لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ).

لذلك فمن تحلى بحسن الخلق فقد تحلى بسجية عظيمة وهو على خير كبير، ولكن الإنسان دائما يطمح إلى ما هو أعلى وإلى الأفضل، فإن بلغ الإنسان درجة الصائم القائم بحسن خلقه، فلا زال هناك متسع لزيادة هذه الدرجة

عبر تجارة الدنيا والآخرة. وهنا يمكن لمن حسن خلقه، وحصل على الخير الكثير دون تعب ولا مشقة، أن يكسب المزيد من الخير والدرجات العالية من خلال التفكر في الأعمال الصالحة وأي من هذه الأعمال التي يحصل من خلالها على أكثر الأجر بأقل الجهد والوقت، وهذا هو المعنى الحقيقي للنجاح. إنه تحقيق الهدف على الوجه الأكمل بأقل الوقت والجهد سواء في أمور الدنيا أو الآخرة. في أمور الدنيا، يركز الإنسان على تحقيق أهدافه بأقل جهد ووقت وهذا هو النجاح الدنيوي، ومن باب أولى أن يفكر بالفوز الأعظم وهو فوز الآخرة، واللبيب من عمل واجتهد للفوز بكليهما.

على المسلم أينما كان أن يفكر دائما بحياته وآخرته وكيف يحسن العمل في الأولى ليستعد للثانية. ويجب أن تكون همة المسلم عالية وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: (إنَّ في الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أعَدَّها اللَّهُ لِلْمُجاهِدِينَ في سَبيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ ما بيْنَهُما كما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجَنَّةِ، وأَعْلَى الجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ). إن فضل الله عظيم وعطاؤه جليل ورُبَّ دعوة في ساعة إجابة ترفع الإنسان إلى الدرجات العلا، فإن هذا الإنسان أعظم الطلب بهذه الدعوة فقد كان من المحظوظين الفائزين. وعلى هذا يجب تعظيم الدعاء والطلب من الله جل وعلا الأمور العظيمة والدرجات الرفيعة خاصة الفردوس، فما ذلك على الله بعزيز ولا ندري أي دعوة تجاب، وإننا لنعلم أن الله جل وعلا لا يرد داع خائبا.

ولحسن الخلق ثمرات أخرى كثيرة منها تعمير الديار والزيادة في الأعمار فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنَّهُ مَن أُعْطيَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ، فقَدْ أُعْطيَ حظَّهُ من خيرِ الدُّنيا والآخِرةِ، وصلةُ الرَّحمِ، وحُسنُ الخُلُقِ وحُسنُ الجِوارِ، يُعمِّرانِ الدِّيارَ، ويَزيدانِ في الأعمارِ). فحسن الخلق يعمر الديار لأن من حسن خلقه يحب الآخرين ويحب التعاون والعمل معهم ومساعدتهم على بناء وتعمير المناطق التي يعيشون بها فتزدهر بهم

البلاد وتُحترَم وتُحفَظ حقوق العباد. وفي الحديث إشارة أخرى إلى أن حسن الخلق يطرح البركة في الأعمار ويزيدها. عندما تتوفر هذه الأمور في بلد فإنه يسوده الأمن والطمأنينة ويأمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم وهذا مما يساهم في تعمير البلاد ومع حسن الخلق تقل النزاعات والخصومات فسيود الأمن وتتناقص الاضطرابات والفتن التي غالبا ما تودي بحياة الأفراد.

من حسن خلقه جدير به أن يفكر بمزيد من الأعمال الصالحة والإكثار من النوافل بعد أداء الفرائض، فالفرائض هي الأهم والأولى ودونها لا تصح النوافل. ومن النوافل ذات الأجر العظيم المداومة على الذكر ومنها أيضا صلاة الوتر في كل ليلة. يجب على المسلم ألا يغفل عن النوافل لأننا عندما نقوم بالفرائض فإنه يصاحب أداءها نقص في إتمامها، وتكمن أهمية النوافل في إتمام الفرائض، فقد جعلت لتكمل ما نقص من الفرائض وتعين المسلمين على رفع درجاتهم. وهذه هي تجارة الآخرة فالتاجر الحاذق هو الذي يركز على تحقيق أفضل الإنجازات، وبنفس الوقت، أيسرها أداء. فإذا كان التاجر يركز على تجارة الدنيا فإن تجارة الآخرة أهم وأبقى؛ لذا يجب أن نفكر بها أكثر مما نفكر في تجارة الدنيا أو مثلها على أقل تقدير، فهناك الكثير من الأعمال التي يمكن أن ننجزها بسهولة شديدة وقد تميزت بعلو الأجر ومضاعفة الثواب مثل الذهاب باكرا إلى صلاة الجمعة والمداومة على أذكار ما بعد الصلاة وأذكار الصباح والمساء والذكر بشكل عام بكافة الأوقات والأماكن والدعاء للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات وغير ذلك من النوافل.

وعلى المسلم أيضا أن يسخر تجارة الدنيا لصالح تجارة الآخرة، كمن رزق مالاً كثيراً، فإنه قد أوتي ميزةً لم يؤتها كثير من الناس حيث يستطيع التصدق ببعض ماله ومساعدة المحتاجين فيكون بذلك قد استفاد من تجارة الدنيا وسخرها لرفع درجته في الآخرة.

إن حسـن الخلـق، الـذي يُبَّلِـغ من تحلى بـه الدرجات العـلا في الآخرة، فإنه يرفـع مـن شـأن المؤمـن في الدنيـا أيضـاً، فيكـون مـن أفضـل المؤمنـين كـما ورد في الحديـث الـذي رواه عبـد اللـه بـن عمـر، رضي الله عنهـما (أفضـلُ المؤمنينَ أحسـنُهم خُلقًـا). فأكـرم بهـا من سـجية عظيمة وصفـة جليلة تسـمو بصاحبها حتـى تبلغـه معـالي الأمـور في الدنيـا والدرجـات العـلا في الآخرة، وقـد ورد عن رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسـلم أنـه قـال: (أَنا زَعِيـمٌ ببَيـتٍ في ربَـضِ الجنَّةِ لِمَـنْ تَـرَكَ المِـرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَببيتٍ في وَسَـطِ الجنَّةِ لِمَنْ تَـرَكَ الكَذِبَ وإِن كَانَ مازِحًـا، وَببيـتٍ في أعـلَى الجَنَّـةِ لِمَـن حَسُـنَ خُلُقُـهُ). ففـي هـذا الحديـث جُعِـل البيـت الـذي في أعـلى الجنـة لمـن حسـن خلقـه، ويكـون هـذا طبعا مع أداء مـا فرضـه اللـه جـل وعـلا ودون ذلـك لا ينفعـه شـيئا. فمـن حسـن خلقه وعلـت همتـه والتـزم بمـا كتبه الله تعـالى عليه فقـد أوتي خيراً كبـيراً ونال ثماره العاجلـة في الدنيـا وسـيكون جـزاءه عند ربـه في الآخرة أجل وأكـرم. فهنيئا لمن حباهـم اللـه سـبحانه وتعـالى بهذه السـجية المباركـة التي جعلت لهـم القبول والمـودة في البـلاد وبها يرفـع درجاتهـم رب العباد.

بنـاء عـلى مـا تقـدم، لحسـن الخلق ثمـرات عظيمـة تعين من تحـلى به على السـمو والرفعـة في الدنيـا والآخـرة، كـما إن حسـن الخلـق يسـاهم في توطـين القبـول لمـن حسـن خلقـه بـين النـاس المقربـين منـه ومـن يعرفهـم ويختلـط معهـم. إن سـجية هـذه ثمراتهـا تسـتحق منـا العنـاء والعمـل الجـاد لبلوغهـا، بـل والعمـل عـلى تحسـينها بشـكل مسـتمر ودون هـوادة. فمـن رغـب في حسـن الخلـق وعمـل عـلى تحقيقـه فإنـه بالغـه، ولكـن عليـه التحـلي بالصـبر لأن المطالـب العظيمـة لا تتحقـق بسـهولة إذ لابد من الجـد في طلبها والإصرار عـلى تحقيقها.

الفصل الرابع

حسن الخلق

يُوَلِدُ الراحة النفسية

لحسن الخلق أثر على الراحة النفسية وتهدئة خواطر الأفراد لأن من حسن خلقه غالبا ما يتجاوز عن أخطاء الآخرين ويتغافل عن زلاتهم مما يقلل من فرص الغضب والشحناء التي قد تحصل نتيجة تتبع زلات الآخرين ومختلف أمورهم. ومن حَسُنَ خلقه عادة ما يركز على إصلاح نفسه والتماس الأعذار لمن أخطأ في حقه ويكون أبعد الناس عن الأمور التي تسبب التوتر والقلق النفسي مثل الغضب ومتابعة أخبار الآخرين وشؤونهم الخاصة. ومن هذا المنطلق، على المسلم أن يعلم أن كل إنسان عرضة للخطأ، وأنه لا أحد معصوم منه ومن تتبع أخطاء وزلات الآخرين أتعب نفسه وحمَّلَها عبئاً ثقيلاً، لأنه لابد من تواجد هذه الأخطاء به وبغيره ويجدر بالإنسان ألا يتابع صغائر وسفاسف الأمور، بل يحلم ويتجاوز وينزه نفسه حتى عن سماعها. وإذا ما تحلى المرء بهذه الصفات طابت نفسه وتحسنت نفسيته ومن ثم سيشعر بالراحة النفسية والطمأنينة.

ومن عمل بمقتضى هذا فقد هذب نفسه وأراحها وعودها على محاسن ومعالي الأمور وأصبح ممن يحب الناس مجالسته والتحدث إليه خاصة أن من حسن خلقه يربأ بنفسه عن الغيبة أو الإساءة لمن صاحبوه أو عاشروه. وحسن الخلق يصلح باطن الإنسان كما يصلح ظاهره لأنه لا يوجد عنده ما يخفيه ولأنه يكره أن يتكلم في ظهور الخلق أو في غيابهم لأن هذا لا يتناسب وأخلاقه العالية. من حسن خلقه أيضا يطيب كلامه ويجتنب الفاحش من القول، وهذا الأمر يمكن ملاحظته على كثير من الناس وخاصة في المجالس عندما يتكلم شخص ما ببعض الكلام غير اللائق فوقع هذا الكلمات يلاحظ مباشرة على وجوه من حسن خلقهم إذ يبدو على وجوههم الامتعاض وكراهية سماع مثل هذه الكلمات.

وإذا ما لاحظ صاحب الكلمات هذا الصدى على وجوه جلسائه فلابد له من محاولة إصلاح ما أفسده بكلمات أخرى لائقة تلطف الأجواء وتعيده إلى جو الصحبة. وهذه من فوائد الصحبة الصالحة لأن من يقع في مثل

هـذا الموقـف يحـذر مـن الوقـوع بمثلـه في المجالـس القادمـة ويبـدأ يراقـب كلامـه وتصرفاتـه حتـى يهذب خلقـه ويكون جديرا بمجالسـة أولئك الأشـخاص المهذبـين، لأن الجليـس الصالـح لـه تأثـير إيجابي دائـم على الأشـخاص الآخرين، كـما قـال لبيـد بـن ربيعة رحمـه اللـه تعالى:

ما عاتـــبَ الحـــرَّ الكريـــمَ كنفسِه   والمـرءُ يصلحُـــه الجليـــسُ الصَّالحُ

إلى ذلـك، يوجـد فـرق كبـير بـين جلسـاء الخـير وجلسـاء السـوء، إذ إن نفـوس جلسـاء الخـير طيبـة ويشـعر مـن يجلس معهـم بالراحـة النفسـية، بل ويشـتاق إلى مجالسـتهم إذا ابتعـد عنهم. أما جلسـاء السـوء فـما يتذكرون من مجالسـهم سـوى الشـحناء والمجادلـة وحدة النقـاش والإصرار عـلى الآراء حتى يكـره أحدهـم مجالسـة الآخـر. فالفـرق بين الفريقـين عظيم من ناحيـة الراحة النفسـية فالفريـق الأول يتميز بالهـدوء والطمأنينة، أما الفريق الثاني فيسـوده التوتـر والشـحناء وأحيانـا قلـة الاحـترام بـين أفـراد هـذا الفريق بسـبب المزاح الثقيـل والـكلام النـابي الـذي ربمـا يسـتخدمونه في بعـض الأحيان.

لـذا ينبغـي عـلى كل إنسـان أن يختـار المجالـس الصالحـة والمناسـبة التـي يمكـن أن يسـتفيد منهـا وقـد تكـون هـذه الفائـدة أدبيـة أو علميـة أو شرعيـة وقـد تؤثـر هـذه المجالـس عـلى أخـلاق الأفـراد فتصقلهـا وتحسـنها. وقـد قـال رسـول اللـه صلى الله عليه وسـلم: (إِنَّمـا مثَلُ الجلِيـس الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّـوءِ: كَحَامِـلِ المِسْـكِ، وَنَافِخِ الْكِـيرِ، فَحامِـلُ المِسْـكِ إِمَّـا أَنْ يُحْذِيَـكَ، وَإِمَّـا أَنْ تَبْتَـاعَ مِنْـهُ، وَإِمَّـا أَنْ تَجِـدَ مِنْـهُ ريحًـا طيِّبـةً، ونَافِخُ الكِـيرِ إِمَّا أَن يَحْـرِقَ ثِيابَـك، وإمَّا أَنْ تَجِـدَ مِنْـهُ رِيحًـا مُنْتِنَـةً). فالمجلـس الصالـح لـه فوائده كثيرة متعـددة تعود بالنفـع عـلى كافـة الجلسـاء ومجالـس السـوء لا يسـتفيد جلسـاؤها سـوى المشـاحنات والغيبـة والإثـم كلـما خاضـوا بمـا هـو محرم.

إن حسن الخلق من خصال العظماء الذين عليت هممهم، فلا يلتفتون إلى صغائـر الأمـور، بل ييمنـون أبصارهم نحـو عظامها لأن حب الخـير والإنجازات

العظيمة قد غرس في أنفسهم غرسا فيتطلعون إلى السمو بأخلاقهم وأخلاق غيرهم ودائما ما يطمحون إلى أهداف نبيلة يعود نفعها على مجتمعاتهم وأوطانهم فَسَمَوا بذلك فوق كل المصالح الشخصية فطابت أنفسهم وبذلوا الغالي والنفيس في سبيل خدمة أمتهم ورفعة شأنها وصلاح البلاد والعباد، وقد أحسن المتنبي عندما قال فيهم:

وَتَعظُمُ في عَينِ الصَغيرِ صِغارُها وَتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

فالعظام مقاصدهم عظيمة وأهدافهم كبيرة وهم لا يتطلعون إلى الأمور الصغيرة التي قد يتطلع إليها كثير من الناس. والمقصود في بيت المتنبي أن الرجال العظام مهما تعاظمت إنجازاتهم يرونها دون المستوى ويتطلعون لما هو أعلى وأن الصغار يرون الإنجاز الصغير التافهة على أنه إنجاز عظيم لا يقدر بثمن. والرجال العظام همهم دائما أكبر من بقية الناس كالعالم الراسخ في العلم فإنه لا يفكر بنفسه فقط، بل يفكر دائما بصلاح أمته ومجتمعه وصلاح من حوله وهؤلاء هم العلماء الذي يستحقون التبجيل والإجلال، لأنهم استشعروا نعمة الله جل وعلا عليهم فارتاحت نفوسهم وعملوا على نقل هذا الشعور وتلك الراحة النفسية لغيرهم. مثل هؤلاء لا تهمهم أمور الدنيا وهمهم الأكبر هو صلاح أمتهم؛ لذا أصبح همهم هم أمة وليس فردا وبمثل هؤلاء ترتقي الأمم، وبغيابهم لن تكون الأمور على ما يرام وربما يبدأ المجتمع بالتفكك ومواجهة مصاعب ومشاكل لا حصر لها؛ لأن غيابهم يفتح الباب واسعاً لانتشار الجهل.

حسن الخلق يساهم أيضا في تعزيز الراحة النفسية بين من حسنت أخلاقهم عبر مراقبة السلوك والتصرف والتركيز على السلوك الحسن لتلافي كافة التصرفات السلبية التي قد يندم عليها الإنسان فلا تصدر عنهم سوى التصرفات المحمودة التي يحمدون الله جل وعلا عليها كلما تذكروها.

ومـن حسـنت أخلاقهـم كانـوا أقـدر عـلى مواجهـة العقبـات وأقـوى نفسـا وأصـبر مـن غيرهم عـلى التحديـات وهم مسـتعدون لكافـة النتائـج ويتلقونها بصـدر رحـب ونفـس طيبـة لأنهـم متيقنـون بأنـه لا يصيبهـم إلا مـا كتبـه الله سـبحانه وتعـالى عليهـم. وهـم يعلمـون أن هـذه الدنيـا لا تصفـوا لأحـد وأنـه لابـد مـن مواجهـة الأمـور غـير السـارة وأن طيـب العيش قـد يعقبه شـدة وأن الشـدة قـد يعقبهـا رخـاء وطيب عيـش، كما قال أبـو البقاء الرنـدي رحمه الله تعالى:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَـا تَـمَّ نُقْصَـانُ فَلَا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إِنْسَـانُ

هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَـا دُوَلٌ مَنْ سَـرهُ زَمَـنٌ سَاءتْـهُ أَزْمَانُ

فالأيـام تنقلـب وتتغـير وكذلـك الحـوادث وكل إنسـان لابد أن يواجـه كثيراً مـن الأمـور التـي لا تـسره وهذه سـنة الحيـاة كما خلقهـا الله سـبحانه وتعالى، ففيهـا فقـدان الأحبـة وفراقهـم وفيهـا الربـح والخسـارة وفيها أيضـا الكثير من الأمـور السـارة، ولكنهـا لم ولـن تصفو لأحـد ونهايتها مـوت. واللبيـب هو الذي يعمـل ويسـتعد لذلـك اليـوم الـذي سـيفارق فيه هـذه الدنيـا وسـيلقى بعده حسـابا عـادلا لا ظلـم فيـه، فإن عمـل خيرا في هـذه الدنيا فقد نجـا وأفلح وإن عمـل خـلاف ذلـك فقـد ظلـم نفسـه وأهلكها، ومـن ثم سـيكون مصـير الناس جميعـا إلى جنـة أو نـار. واللـه، سـبحانه تعـالى، نسـأل السـلامة لنـا ولجميـع المسـلمين، والمسـلمات، والمؤمنـين، والمؤمنات.

مـن جهـة أخرى، لحسـن الخلق دور كبير في تعزيز الراحة النفسـية بين من تحـلى بـه لأنـه يقلـص العـداوات والمشـاحنات والخصومـات بـين النـاس. ومن حسـن خلقـه قلـما ينخرط في مشـاكل أو سـجالات مـع الناس المحيطـة به، بل حتـى عندمـا تحـدث هذه الأمـور فإنه يعمـل عـلى امتصاصها والتغلـب عليها وهـو أكـثر مرونـة من غـيره لما يتمتع بـه من قوة الشـخصية والراحة النفسـية التـي يتحـلى بهـا نتيجـة حسـن خلقـه. أما فيـما يتعلـق ببعض التصرفـات غير

الملائمة من بعض الأشخاص، فمن حسن خلقه يتغافل عنها وهو طيب النفس لأنه اعتاد على مسامحة الآخرين وغض الطرف عن أخطائهم وزلاتهم فارتاحت نفسه وحفظ الود بينه وبين أولئك الأشخاص.

بناء على ما تقدم، يلعب حسن الخلق دوراً مهماً في حياتنا النفسية والاجتماعية ويعيننا على التغلب على كافة المصاعب ويساعدنا على احترام الآخرين وكذلك احترام الآخرين لنا. ومتى ما تحلى الناس بهذه الخصال الجيدة طابت حياتهم وشعروا بالسعادة، بل ويعملون على نشر هذه السعادة فيمن حولهم، فيكونون نافعين لأنفسهم ولغيرهم وهذه من أهم القواعد التي تبنى عليها المجتمعات على أسس سليمة قادرة على الصمود بوجه كافة التحديات والمحن.

الفصل الخامس

الشباب

وحسن الخلق

مرحلة الشباب من أهم المراحل التي يمر بها الإنسان لأن الشاب يشهد فيها تغيرات بيولوجية متسارعة يكون قد انتقل خلالها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ حيث يتشكل سلوكه وأخلاقه في هذه المرحلة أكثر من غيرها فكأنه يضع أساسات حياته لتتسم بعدها بالنجاح والسعادة أو بالفشل والتعاسة. تتميز هذ المرحلة أيضاً بفرط النشاط والإمكانيات والقدرات الكبيرة التي يجدر بالشباب أن يستغلوها ويوجهوها في الاتجاه الصحيح، فإن فعلوا ذلك فإنه سَيَتَكَوّن جيل قوي قادر على مواجهة التحديات المستقبلية وتحمل المسؤوليات ليواصل مسيرة البناء التي بدأها الآباء والأجداد وإن لم يكونوا كذلك فَسَيَتَكَوّن جيل ضعيف غير قادر على تحمل المسؤوليات وبفشلهم قد يفشل المجتمع ككل. ومن هنا يبرز الدور الحيوي للشباب فإن تم إعدادهم كما يجب تسير أمور المجتمع على ما يرام وتستمر الحياة الناجحة، وبنجاحهم تنجح المجتمعات.

ومن هذا المنطلق، ركز الإسلام على هذه المرحلة كما ورد في الحديث النبوي حول السبعة الذين يظلهم الله سبحانه وتعالى في ظله يوم القيامة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللَّه تَعالى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللَّه: اجتَمَعا عَلَيهِ، وتَفَرَّقَا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ، وَجَمَالٍ فَقَالَ: إنِّي أَخافُ اللَّه، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فأَخْفَاها، حتَّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّه خالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ). جاء ترتيب الشباب في الحديث بعد الإمام العادل وهذا يبين أهمية مرحلة الشباب وصلاحهم في هذه المرحلة التي قد ترسم ما تبقى من حياتهم وكما قيل "من شب على شيء شاب عليه". ولأن هذه المرحلة من أخطر مراحل حياة الإنسان وفيها الصبر على المغريات أو الانجراف والانغماس فيها. ويتطلب هذا الأمر جهودا عظيمة للمحافظة على الاستقامة وسلوك طريق النجاح، ولأن الشباب يحتاجون إلى الصبر ومواجهة مغريات الحياة في هذا المرحلة وُعِدوا بعظيم الأجر يوم القيامة.

إن حسن الخلق والتزامه في هذه المرحلة الحيوية ليس بالمهمة السهلة على الشباب خاصة في زماننا الحالي لكثرة المغريات والأماكن التي ينتشر فيها الفساد والملهيات مما يجعل المهمة أصعب بالنسبة للشباب خاصة غير المتزوجين منهم. ومن الواجبات التي تقع مسؤوليتها أولا على الآباء والأمهات ومن ثم الدولة وكافة الجهات المعنية، هي توجيه الشباب وحثهم على هذه الخصال الطيبة وعلى رأسها حسن الخلق لأنها تساعدهم على حفظ حياتهم الكريمة وصحتهم النفسية والجسدية وتهيئهم لتحمل المسؤولية في المستقبل القريب.

يُعَدُ حسن الخلق خط الدفاع الأول للحفاظ على الشباب والأخذ بأيديهم ليتغلبوا على مغريات الحياة ولا تتوقف هذه المغريات عند الأمور غير الأخلاقية إنما تتعدى ذلك إلى كافة المغريات والملهيات التي قد تدمر حياة الشباب المستقبلية ومنها قضاء أوقات طويلة جداً على الأجهزة اللوحية متجاهلين الأضرار الصحية التي تسببها هذه الأجهزة خاصة من إجهاد للعيون إضافة إلى الصداع وآلام وأمراض العمود الفقري والرقبة نتيجة الجلوس على وضعية واحدة لأوقات طولية.

تعد معظم هذه الأجهزة والتصفح الطويل للأنترنت والمواقع المختلفة مضيعة للوقت وإنها أيضا تقتل المواهب الحقيقية التي قد يستفيد منها أبناؤنا في المستقبل، كما تؤثر كثيراً على حسن الخلق والتربية لأنها تسبب عزلة للشباب والأطفال على حد سواء، لذلك نرى كثيراً من الأطفال يعانون من أمراض جديدة وخطيرة لم نكن نسمع بها من قبل مثل التوحد.

لا شك أن الإدمان على هذه الأجهزة يؤثر سلبا على تحصيل الشباب العلمي لأنهم يقضون معظم وقتهم في متابعة أمور لا فائدة منها، هذا إن لم يكن لها مفعولا عكسيا على حياتهم بما في ذلك الوزر الذي يحملونه جراء الاستخدامات الخاطئة ومن ذلك السب والشتم واللعن على مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها. على الشباب أن يدركوا أن متعة هذه الأجهزة

زائفة وستنتهي، ولكن نتائجها السلبية مثل المشاكل الصحية قد ترافق الشباب طيلة حياتهم وإذا ما حملوا وزراً على أفعالهم هذه فسيبقى كذلك الوزر، ويظنون بذلك أنهم يتمتعون بحياتهم على الوجه الأكمل، ولكن الحقيقة خلاف ذلك كما قال ابن الوردي رحمه الله تعالى:

إنَّ أهنَـــى عِيشـــةٍ قضَّيتُهـــا ذهَبَـــت لذَّاتُهـــا والإثم حلّ

فما يتوجب علينا فعله هو تحصين الأبناء من خلال غرس الأخلاق الحميد في نفوسهم وأن نعلمهم الاعتدال في كل شيء فلا إفراط ولا تفريط، بل هو حد وسط بين الاثنين. ولا نقصد، من خلال هذا الكلام، أن على الشباب أن يتخلوا عن هذه الأجهزة إنما قصدنا الاعتدال في استخدامها، لأنه يمكن للشباب أيضا أن يستفيدوا فائدة عظيمة من هذه الأجهزة، ولكنهم يحتاجون إلى الاعتدال والتركيز على ما ينفعهم إضافة إلى الحاجة الماسة إلى توعيتهم حول خطر بعض المواقع الإلكترونية الضارة فكم سمعنا من جريمة قتل أو شخص انتحر أو قتل نفسه نتيجة متابعة أو ممارسة أو مشاهدة بعض الألعاب الإلكترونية على مواقع الإنترنت.

إن الحفاظ على الأبناء وتربيتهم التربية الصحيحة هي من واجبات الآباء ويجب عليهم بذل كل جهد ممكن لمساعدتهم ليكونوا ذخرا لوالديهم أولا وأوطانهم ثانيا. وإذا تمكنا من بناء جيل ناجح يتمتع بحسن الخلق، فإننا سنضمن جيلا قويا قادرا على إدارة كافة شؤون الحياة في المستقبل، فشباب اليوم هم رجال الغد وهم أحوج ما يكونون للنصيحة في هذا المرحلة من حياتهم فإن استقاموا في هذه المرحلة فقد سلكوا الطريق الصحيح وعلى الأرجح ستستقيم حياتهم كلها وإن فشلوا في هذه المرحلة فعلى الأرجح أنهم سيفشلون في المرحلة القادمة.

إذا وجد الشباب التوجيه والإرشاد الصحيح منذ الصغر فإنهم سينشؤون على ذلك وإن تُرِكوا على الأجهزة الإلكترونية دون حسيب ولا رقيب فقد ظلمهم آباؤهم؛ لأنهم أهملوهم في الصغر وإن أهملوهم في الصغر فلن يستطيعوا تقويمهم في الكبر. الشباب والأطفال خاصة هم أمانة في أعناق والديهم ويجب عليهم متابعة أمورهم بأنفسهم وألا يتركوهم للخدم للقيام بكافة شؤونهم بما في ذلك تربيتهم، فهذا يعد من عقوق الأطفال وإذا عق الوالدان أبناءهم فإنهم سيواجهون عقوق الأبناء عند كبرهم فالمسألة وفاء ودين، وكما قيل "كما تدين تدان".

من الملاحظ في أيامنا الحالية غياب الشباب عن معظم المحافل والأمور المهمة في حياتنا كمسلمين وخاصة صلاة الجماعة في المساجد، فعدد الشباب ليس كما يجب ويكاد يكون معدوماً أحياناً لأن معظم المصلين هم من الرجال والشيوخ. إن هذا الأمر لا يبشر بخير ولا بحسن خلق لا من الشباب المتغيبين عن الجماعات ولا ممن قام بتربيتهم. ويلاحظ أيضا أن بعض الملتزمين في صلاة الجماعة لا يتوجه أبناؤهم إلى المساجد إلا ما ندر وهذا أيضاً يشير إلى أن هناك فجوة بين الآباء والأبناء. وهنا يتوجب على الآباء العمل لتقليص هذه الفجوة وأن يكونوا أقرب من أبنائهم وأن يحثوهم على فعل الخير ويعلموهم أن الصلاة هي من أهم أركان الإسلام وهي أساس في صلاح باقي أعمالنا.

يتوجب على الآباء ألا يتهاونوا في هذا الأمر وأن يُعَوّدوا أطفالهم منذ الصغر على صلاة المساجد حتى يألفوها ويستمروا عليها في مرحلة الشباب. وإذا أهمل الآباء هذا الأمر فسينشأ جيل بعيد عن صلاة الجماعة وربما بعيد عن الصلاة ككل كما لو أنهم تربوا في بيوت غير مسلمة.

لقد تخلف كثير من الشباب عن صلاة الجماعة، وربما عن الصلاة في الجملة، وانصرفوا إلى ملذات الحياة وسهروا الليل وناموا النهار فكان نتيجة ذلك الخمول والأمراض وسوء الخلق. إن التمتع بملذات الحياة ليس بمحرم

عـلى الشـباب أو غيرهـم، ولكـن كل شيء يجب أن نمارسـه باعتـدال بحيث أنه لا يؤثـر عـلى واجباتنـا الأخـرى خاصة واجباتنا نحـو عبادة الله سـبحانه وتعالى وواجباتنـا نحـو الآبـاء، والأرحـام، وواجباتنـا العلميـة، وغيرهـا. ومـما يتوجـب علينـا فعلـه أيضـاً هـو تحقيـق التـوازن بـين كل هـذه الأمـور، وبهـا تسـتقيم الحيـاة ويمكـن للشـباب وغيرهـم أن يحيـوا حيـاة طيبـة سـعيدة في الدنيا وأن يسـتعدوا للسـعادة الأبديـة في الآخـرة إن هم اسـتقاموا على الصراط المسـتقيم وعملـوا بمـا يـرضي اللـه تعالى ورسـوله صلى الله وعليه وسـلم وكذلـك والديهم ومجتمعاتهم.

هنـاك مشـكلة كبـيرة تكمـن في سـلوك بعـض الآباء حيـث إنهم يرون سـوء خلـق أبنائهـم أو يرونهـم عـلى حالهـم هـذا ويسـكتون عنهـم وبعضهـم يقول لم أسـتطع فعـل شيء، وهـذا كلـه كلام لا يصـح. على الآبـاء أن يعلمـوا أنهم إن لم يُقَوّمـوا سـلوك أبنائهـم في هـذه المرحلـة فالمهمـة سـتكون أصعـب عندمـا يكـبرون. لذلـك يجـب على الآبـاء جميعا التـوكل على اللـه أولا والدعـاء للأبناء وبـذل كافـة الجهود الممكنة لتهذيب سـلوكهم قبل فـوات الأوان. يحب عليهم أيضـا أن يحثوهـم عـلى صـلاة الجماعـة وكافـة الأمـور التـي تتعلـق بحياتهـم، فالشـاب الـذي عـرف حـق ربـه عليه سـيعرف حق والديـه عليه وسـيكون بارا بهـم عنـد كبرهـم فالديـن والالتـزام بـه هـو رأس المـال الحقيقي لأنـه ينعكس عـلى الأبنـاء والآبـاء معا. فمن حسـن خلقـه ودينه يكـون بارا بوالديـه ويراعي مصلحـة وطنـه ومصالـح المسـلمين عامـة ويكـون ممـن يرجـى خيره ويتوسـم فيـه الخـير وبأمثاله.

عندمـا يحـث الآبـاء أبنائهـم عـلى الصـلاة والصيـام وكافـة أمـور العبـادة، فإنهـم يعملـون لأنفسـهم كـما يعملـون لأبنائهـم وإذا تمكنوا من دفـع أبنائهم نحو الصلاح فسـيقطفون ثمار ذلك في الدنيا والآخرة وسـينعكس حسـن أخلاق هـؤلاء الشـباب عـلى أنفسـهم ووالديهم. إذا صلح الشـاب كان مطيعـا لوالديه وعونـا لهـم عـلى متطلبـات الحيـاة وإذا لم يكـن كذلـك فإنـه سيتسـبب بتعب

وهـم كبـير لهم وربما يكون سـبب شـقائهم في الدنيـا والآخرة. وبنـاء على هذا، يجـب أن تتصـدر التربيـة الصالحـة للأبنـاء كافـة أولويـات الآباء ليكونـوا ذخرا لوالديهـم ومجتمعاتهـم وأمتهم.

عندمـا يَحْسُـن خلق الشـباب يكونون مسـتعدين للقيـادة ويتصدرون كافة الأنشـطة المهمـة في الحيـاة بما في ذلك الأنشـطة العلميـة والتربوية حيث يزخر تاريخنـا بإنجـازات الشـباب العظيمـة وبطـولات منقطعة النظير من شـباب لم يتجـاوز عمرهـم العشريـن عاما. ومـن الأمثلة على ذلك، أسـامة بـن زيد، رضي اللـه عنـه، الـذي قـاد الجيـش بعمـر لم يتجـاوز ٢٠ عامـا حـين أمَّرهُ رسـول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم عـلى الجيش وحقـق نجاحاً عظيـماً على حـدود الدولة الإسـلامية الناشـئة، وكذلـك محمـد بـن القاسـم الـذي لم يتجـاوز ١٧ عامـا وقد عينـه عمـه الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي أمـيراً عـلى جيـش عظيـم فتـح بـلاداً واسـعةً، وهـي ما تسـمى ببلاد السـند.

إن الشـباب، إذا أعـدوا إعـداداً جيداً، فإنهم سـيلعبون دورا مهـما في الحياة مـن كافـة النواحـي بمـا في ذلـك القياديـة والعلميـة والعمليـة. مـا يحتاجـه الشـباب فقـط هـو الإعـداد الصحيـح وأن تهيأ لهم البيئة المناسـبة لتسـاعدهم عـلى بلـوغ الأهـداف السـامية. وإن كان شـباب الأمـس قادريـن عـلى القيادة، فشـباب اليـوم يمكـن لهـم أن يقتدوا بهـم وأن ينجـزوا الإنجـازات العظيمة إذا مـا تـم تدريبهـم بشـكل حسـن وتربـوا عـلى محاسـن الأخـلاق وأعطيـت لهـم الفـرص التي يسـتحقونها.

الفصل السادس

حسن الخلق

وتحديات الحياة المعاصرة

لا شك أن حسن الخلق أمر مطلوب على مر الزمان، ولكن التحديات التي تواجه الإنسان تختلف من عصر إلى آخر. في عصرنا هذا الذي يتسم بالسرعة غالبا ما يكون الناس في عجلة من أمرهم لأن أغلب المهام التي ينجزونها يكون قد تم تحديد وقت مسبق لإنجازها إضافة إلى كثرة وتشابك المهام فيسابق الإنسان الزمن لينتهي من الأمور المطلوبة في الوقت المحدد. كل هذه الأمور والضغوط التي يواجهها الناس في العمل وفي الشارع في أثناء قيادة سياراتهم والانتظار أثناء إنجاز المعاملات، التي لا تكاد تنتهي، تؤثر سلبا على تفكير الناس وتعاملهم مع الآخرين وبالتالي ربما تؤثر على سلوكهم وأخلاقهم. لهذا فالإنسان المعاصر محاصر بالالتزامات وأثقلت كاهله الواجبات الكثيرة وسببت له الضغوط النفسية ولم يعد لدى الكثير من الناس الصبر الكافي للتعامل مع كافة المهام بالشكل المطلوب.

بناء على ما تقدم، ينبغي للإنسان المعاصر أولا أن يدرك متطلبات بيئة عمله ويستوعبها وكذلك المتطلبات الاجتماعية ومن ثم يعمل على التوفيق بينها وأن يؤقلم نفسه وفقا لهذه الظروف وعلى رأسها التحلي بالصبر والاستفادة من تقنيات العصر الحديث بالشكل الصحيح. مع زيادة المهام وتعقيداتها، فإن الإنسان المعاصر يمتلك إمكانيات هائلة تساعده على الإنجاز وهي لم تكن متوفرة مع من كان قبلنا؛ لذلك إذا كان لدينا مشكلة فإننا نملك الحل لها أو جزءا من الحل على أقل تقدير وما يحتاجه الإنسان في الماضي يحتاجه الإنسان المعاصر اليوم وخاصة حسن الخلق ومتطلباته من الصبر والعزم وحب إتقان العمل.

ومن الأمور الحياتية المعاصرة التي نختبرها بشكل يومي هي قيادة السيارات وما نشاهده أحيانا من سوء خلق وعدم احترام للطريق ولحقوق الآخرين بشكل يرفع ضغط الدم وربما السكر بين مستخدمي الطريق. خلال قيادتنا، نلاحظ أحيانا تصرفات غير مسؤولة وغير لائقة قد تصل إلى حد الشتم والمضايقات بين مستخدمي الطريق وربما تؤدي إلى الحوادث

المرورية، علما بأنه غالبا ما تحدث هذه الأمور لأسباب تافهة أو استعجال مصطنع، أي أن بعض الناس اعتادوا على العجلة حتى إن لم يكن هناك شيء ضروري ينتظرهم، فهم دائما متوترون ويقودون سياراتهم بسرعة جنونية قد تتسبب بإزهاق أرواح بريئة.

وقد حصلت الكثير من الحوادث حيث يتوفى فيها أشخاص ملتزمون بالقوانين المرورية، بل ويقودون سياراتهم بكل احترام ملتزين بحدود السرعة وكافة القوانين ومن ثم يأتي شخص مستهتر فيصدمهم ويتسبب بوفاتهم. نحن على يقين بأن الفاعل سيكون نادما أشد الندم على ذلك، ولكن ما نفع الندم بعد أن تسبب بجريمة قتل وقتل بريئا لا ذنب له سوى أنه ضحية لاستهتار بعض المستهترين. الشاهد أن كل هذه التصرفات تنبئ عن سوء خلق ولا تتوافق وسجية حسن الخلق التي دعا إليها الإسلام.

علاوة على ذلك، القيادة السريعة وإزعاج الآخرين لن يجعلك تصل إلى وجهتك فوراً، بل ولن يكون الفارق كبيرا ولن يتجاوز سوى دقائق قليلة بين القائد المستهتر ومن يقود سيارته وفق القوانين والإرشادات وغالبا ما تصاحب الثاني السلامة وربما واجه الأول عواقب وخيمة كالحوادث المرورية والتي يمكن أن يسببها لنفسه ولغيره، فمن حسنت أخلاقه لا يقبل بهذه التصرفات لأنه يحترم الآخرين ويحترم حقوقهم.

إن هذه التصرفات غير المسؤولة تنم عن سوء خلق وقلة احترام للنفس والآخرين لأن من لا يحترم الآخرين لا أحد يحترمه. هذه أيضا تصرفات لا تليق بالمسلم وكلما يحتاجه المستهترون هو حسن الخلق والتعود على الصبر حتى يحافظوا على أرواحهم وأرواح من يستخدم الطريق. لو فكر المستهترون بالعواقب الوخيمة التي قد تحدث نتيجة تصرفاتهم الطائشة لما أقدموا على هذه الأفعال، ولكن بعضهم لا يتعظ حتى يقع في المحظور! وهناك كثير من المستهترين تابوا عن أفعالهم الطائشة هذه، ولكن بعدما ارتكبوا حوادث مرورية قتل فيها أبرياء. هنا يحتاج كل مستهتر للتفكر

حـول هـذا الأمـر ويسـأل نفسـه عـما إذا كان سيسـتمر في طيشـه ورعونتـه أم يتـوب قبـل أن يتـورط بحادث يندم عليه! هل الأفضل بالنسـبة لهـم أن يتوبوا الآن أم بعدمـا يقـع المحظـور؟ إذا فكـروا بشـكل إيجابي فسـيعلمون أنه يجب عليهـم أن يقلعـوا عـن هـذه التصرفات قبـل أن يضعوا أنفسـهم بهـذا الموقف العصيب.

أمـا في بيئـة العمـل، ففـي أيامنا هذه يواجـه الناس ضغوطـا متزايدة نتيجة طـول سـاعات العمـل التـي تمتـد إلى ثمان سـاعات يوميـا في معظـم القطاعات إضافـة إلى الحيـاة الرتيبـة والروتينيـة والمتطلبـات المنزليـة والعائليـة. كل هذه الأمـور تجعـل الإنسـان عرضـة للتوتـر والقلـق التـي قـد تقـوده إلى أقـوال أو أفعـال غـير محمـودة. وهنـا أيضا تكمـن رباطة الجـأش وقوة العزيمـة والإرادة عـلى مواجهـة المصاعـب والشـدائد والثبـات على المبـادئ الطيبـة الأصيلة التي جبـل عليها المسـلم.

هـذه المواقـف تبين معـادن الأفراد إن كانوا سـيصبرون حتى يجـاوزا ما هم فيـه أم يستسـلموا للغضـب والتوتـر ويفسـدوا أخلاقهـم بسيء القـول والفعل. ولمـا كان حسـن الخلـق يحتـاج إلى المكابـدة والمتابعـة أجـزل اللـه سـبحانه وتعـالى العطـاء لمـن حسـنت أخلاقهم وجعل لهـم أعالي الجنان، فهـذه المكافأة الربانيـة تسـتحق منـا التدبـر والتأمل حتى نظفـر بها وهي خير مـا يعيننا على الصـبر والتغافـل عـما يزعجنـا أو ننزعج منه.

ومـن الأمـور التـي قد تشـعر الإنسـان بالتوتـر في حياتنـا المعـاصرة الزحمة المروريـة والزحمـة في الأسـواق. إن الانتظـار أمـر غـير مسـتحب عنـد كثـير من النـاس ويـود الإنسـان ألا يمـر بموقـف كهـذا، ولكـن حسـن الخلـق يظهـر هنـا مـن خـلال مواصلـة المعاملـة الطيبـة. ونخـص بالذكـر هنـا المراجعـين ومن ثم الموظفـين الذيـن يتحملون العـبء الأكبر من الضغط والتوتر بسـبب متطلبات العمـل وطلبـات وأسـئلة المراجعـين التـي لا تـكاد تنتهـي. ونعلم أنـه ليس من السـهل معاملـة كافـة النـاس بلطـف تحـت ضغـط العمـل، ولكـن علينـا أن

نسـدد ونقـارب ونبـذل جهدنـا لإرضـاء ربنـا أولا ومـن ثـم نبـذل مـا بوسـعنا لإتمـام العمـل عـلى أكمـل وجـه ممكن وهذا سـيجعلنا نشـعر بالراحـة وطيب الخاطر.

إن الصـبر عـلى هـذه الأمـور ليـس بالأمـر اليسـير، ولكن الإنسـان يسـتطيع أن يؤقلـم نفسـه وفـق الظـروف المحيطـة بـه والاعتيـاد عليهـا تدريجيـا. أمـا بالنسـبة للمراجعـين، فقد يشـعرهم الانتظار لإتمـام المعاملات بالقلـق والتوتر، ولكنهـم يمكنهـم اسـتبدال هـذه الأجواء بأجـواء إيجابيـة وملء وقـت فراغهم ببعـض الأمـور المفيـدة مثـل الأذكار أو قراءة أشـياء نافعة أو سـماع شيء مفيد أو مسـاعدة الآخريـن إذا وجـد مـن يحتـاج المسـاعدة، وخاصـة إذا كانـت فترة الانتظـار طويلـة نسـبيا. وبهذه الأعـمال الإيجابية يملـؤون الفراغ الذي يسـعى الشـيطان دائمـا إلى ملئـه بطريقتـه الخاصـة مـن خـلال تقويـض صـبر الإنسـان وحثـه عـلى مخالفـة القوانـين مثل من يسـعى لأخـذ دور غيره وإنهـاء المعاملة قبـل الوقـت المحـدد لهـا. هنا يتوجـب على المراجعـين مراعاة واحـترام بعضهم لأن أي واحـد منهـم قـد يكـون لديه التزامات أخـرى مهمة بعد هـذه المعاملة فـلا يصـح لمراجـع أن يأخـذ مكان غـيره عبر الطـرق الملتويـة، ومنها الواسـطة.

أمـا بالنسـبة لمـن يضيـق صـدره من هـذه الأمـور، فعليـه أن يعلـم بأنه إذا عـزم الإنسـان فإنـه يسـتطيع أن يوطـن حياتـه وتصرفاتـه وفقـا لمـا يحـب الله سـبحانه ويـرضى، ولكـن هـذا الأمـر يحتـاج إلى المجاهـدة فـإن أردت أن تفعل شـيئا لابـد مـن التدريب والصـبر والثبات للـدوام عليه كأن تتخذ قـرارا مثلا أن تـؤدي بعـض الأذكار اليوميـة الـواردة عـن رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسـلم كأن تقـول: "لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شريـك له الملك وله الحمـد وهو على كل شيء قديـر" مائـة مـرة في اليـوم. بداية سيشـعر مـن يفعل ذلـك بصعوبة الأمر في الأيـام الأولى فيـوم يذكرهـا ويـوم ينسـاها، ولكـن مـع مـرور الأيـام سـيعتاد عليهـا وسـيذكرها وسـتنخفض نسـبة النسـيان تدريجيـا وسـتنتهي تمامـا عندما يعتـاد عليهـا جيـداً. ومع مرور الأيام، سـيحس بسـهولتها وخفتها على اللسـان،

بـل إن نسـيها في بدايـة اليوم سيشـعر أن هناك مهمة فاتتـه أو لا زالت تنتظره ولم ينجزهـا بعـد حتـى يتذكرهـا ويفعلها كما كان يفعـل في الأيام السـابقة.

مثـال آخـر عـلى ذلك وهو صـلاة الفجر لشـخص اعتاد قضاءهـا بعد طلوع الشـمس خاصـة في وقتنـا الحـاضر حيـث إن معظم النـاس يتكاسـلون عنها ولا يحـضرون الجماعـة. إن قـرر أحـد هـؤلاء الأشـخاص تغيـير عادتـه وأداء صـلاة الفجـر في المسـجد، فإنهـا في بـادئ الأمـر سـتكون عليـه ثقيلـة فيـوم يسـتيقظ ويـوم تفوتـه، ولكـن إذا أصر عـلى الالتزام بها وعقـد النية الصادقـة لذلك فإنه يعتـاد عليهـا، بـل وسيشـعر بالراحـة والطمأنينـة في أدائهـا، وسـيصبح ممـن لا يـود أن يفـارق الجماعـة وقـد يتأسـف كثـيراً لأي يوم تفوته سـواء بسـبب نوم أو مـرض أو سـفر. ومـع مـرور الأيـام، سـتنقلب إلى متعـة بعد أن كانت شـاقة عليـه في البدايـة وإذا فاتتـه يقـضي يومـه وفي خاطـره يـتردد أمر وهـو أنه نسي فعـل أحـد الأشـياء المهمـة في حياته في ذلـك اليوم.

هكـذا هـي الأمـور والمهـام دائمـا تكـون صعبـة في البدايـة وعندمـا يبـدأ الإنسـان بالعمـل عليهـا يبـدأ بالشـعور بسـهولتها تدريجيـا لذلـك هنـاك خيط رفيـع جـداً مـا بـين الفشـل والنجـاح وهـذا الخيـط هـو الصـبر والمثابـرة. ففي بدايـة المهمـة خاصـة إذا كانت مهمـة جديدة لابد من مواجهـة بعض العقبات ومـن ذلـك نقـص المعلومـات أو عـدم المرونـة أو عدم الممارسـة المسـبقة التي تجعلنـا معتاديـن عـلى إنجـاز مثـل هـذه المهام، فـإن تحلينـا بالصـبر والعزيمة وحـب الإنجـاز فإننـا سـننهي المهمـة بنجـاح وإن كنـا مترددين أو لم نتحـل بالثقـة بالنفـس والمرونـة الكافيـة فلـن ننجـح في تلـك المهمة.

في الواقـع، الإنسـان بشـكل عـام والمسـلم بشـكل خـاص يجـب أن يتمتـع بالمرونـة الكافيـة، وكل إنسـان يمتلـك هـذه المرونـة، ولكـن ما يهمنـا هو كيف نسـخرها لصالحنـا، خاصـة في عصرنـا الحـالي لكـثرة الالتزامـات والمهـام وكذلك كـثرة الوسـائل التـي نسـتخدمها لإنجـاز هـذه المهـام. قبـل كل شيء، لابـد مـن الثقـة بالنفـس فإنهـا العامـل الأول الـذي يرسـم الطريـق أمامنـا بالنجـاح أو

بالفشل. فإن تحلينا بالثقة بالنفس وتمتعنا بالعزم والإصرار والمثابرة فلا شيء يقف في وجه الإنسان، بل ويستطيع أن يكيف نفسه، إذا تحلى بهذه الأمور، وفق الظروف المحيطة به.

ويجب أن يدرك الشخص قبل الشروع بالمهمة إذا ما كان جاداً أم لا، فإن كان جاداً فإنه على الأرجح سينجح في مهمته أو فيما أسند إليه، وإذا كان متردداً أو اتبع التسويف في إنجاز المهام فإن الفشل بانتظاره وسيكون حليفه في هذه المهمة والمهام الأخرى. عندما يطمح الشخص إلى غاية معينة فينبغي له أن يفكر فقط في كيفية بلوغها وألا يفكر بما سيواجه في طريقه من مشاكل وعوائق، كما قال أبو القاسم الشابي:

إذَا مَا طَمَحْـــــتُ إلِـى غَـايَـــةٍ ... رَكِبْتُ الْمُنَى وَنَسِيــتُ الحَــذَر

وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وُعُـــورَ الشِّعَـــابِ ... وَلا كُبَّـةَ اللَّهَـــبِ المُسْتَعِـــر

وَمَــــنْ يتهيـــب صُعُـودَ الجِبَـالِ ... يَعِـــشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَـــر

فَعَجَّـــتْ بِقَلْبِي دِمَـاءُ الشَّبَـابِ ... وَضَجَّـــتْ بِصَـــدْرِي رِيَـاحٌ أُخَر

بناء على ذلك، نحن قادرون على الإنجاز وقادرون على إتمام المهام المختلفة إذا رغبنا حقاً في إتمامها بنجاح. هذا يعني أننا نحتاج فقط إلى الرغبة في الإنجاز والإصرار على المتابعة لتخطي العقبات التي تواجهنا، فإن أعددنا العدة وأخذنا بالأسباب، فسنحصل على المطلوب وعلى ما نصبوا إليه، وإن لم نفعل فإنه سيكون من الصعب علينا بلوغ الهدف وربما توقفنا مع أول عقبة تعترض طريقنا. فإذا نويت على أمر فعليك بعلو الهمة وفكر فقط في إتمام المهمة وتحقيق المطلوب ولا تفكر بالجهود التي تحتاج إلى بذلها، بل فكر بلذة الفوز بعد النجاح.

الفصل السابع

العلم وحسن الخلق

العلـم يهـذب النفـوس عمومـاً ويجعل الإنسـان أكثر حكمـة وتواضعا وكلما ازداد علـم الإنسـان وتعمـق في العلـوم بشـكل عـام والعلـوم الشرعيـة بشـكل خـاص تـزداد معرفتـه بقـدرة اللـه جـل وعـلا وحكمتـه مـن الخلـق وتـزداد خشـيته وعبادتـه للـه جـل وعـلا. وإن كان هـذا العالم مـن المؤمنـين فإنه يدرك أكـثر مـن غـيره حـق الله جـل وعلا عـلى العبـاد في عبادتـه على الوجـه الأكمل والأحسـن، كـما يعلـم أكـثر مـن باقـي النـاس القـدرة اللامتناهيـة لله سـبحانه وتعـالى في تسـيير أمـور الخلـق وحكمتـه البالغة في شـؤون المخلوقـين. وقد أكد القـرآن الكريـم عـلى تميـز العلماء من ناحية خشـية الله سـبحانه، وإذا ما كانوا أشـد النـاس خشـية فإنهـم أيضـا يكونـون أكمـل النـاس عبـادة. قـال اللـه جل وعـلا: (إِنَّمَـا يَخْـشَى اللَّهَ مِـنْ عِبَادِهِ الْعُلَـمَاءُ) – فاطر/٢٨. وليسـت عبادة العالم كالجاهـل؛ لأن عبـادة العـالم غالبـا مـا تكـون أكـثر إخلاصـاً نتيجـة العلـم الذي حبـاه اللـه تعـالى إيـاه، فيعبد الله على علم ويقين ولا يسـاور نفسـه أدنى شـك بخالقـه ورازقـه ومدبـر أمره، سـبحانه.

هنـاك أمـور عديـدة تؤكـد ارتبـاط العلـم بحسـن الخلـق ومنهـا الدراسـة الجامعيـة. مـن الملاحـظ أن الـطلاب متى مـا التحقـوا بالدراسـة الجامعية تبدأ أخلاقهـم بالتحسـن وكذلـك معاملتهـم للآخريـن والاحترام المتبـادل لدرجـة أن هـذا الأمـر يظهـر مفعولـه أحيانـا كالسـحر إذ ينقلـب سـلوك وتصرفـات بعض الـطلاب رأسـا على عقب بعد الالتحـاق بإحدى الجامعات مبـاشرة. ومنذ الأيام الأولى في الجامعـة، يبـدأ الطالـب يشـعر بأنـه طالـب علم جامعـي ولا تليق به التصرفـات التـي كان يمارسـها في الثانويـة والأيـام التي سـبقت الجامعـة، فيبدأ بالعمـل على تهذيـب أخلاقـه وسـلوكه ليـتلاءم والمرحلـة الجديدة مـن حياته.

ومـما يسـاعد الطـلاب الجامعيين على حسـن الخلـق البيئـة الجامعية ذاتها إذ تتسـم هـذه البيئـة بالاحترام المتبـادل بين الطلاب والمحاضريـن وبين الطلاب أنفسـهم. وعندمـا نتكلـم عـن الطـلاب فإننـا نتكلـم بشـكل عـام والـكل يعلم أن لـكل قاعـدة شـواذ ومـن هنـا فإننـا لا نقصـد أن كل طالـب جامعـي يتحلى

بحسـن الخلـق، ولكننـا نتكلـم عـلى العمـوم أي أن أغلـب الطـلاب الجامعيـين هـم عـلى هذه الشـاكلة ولابد مـن وجود الاسـتثناءات وبعض الحالات الشـاذة وهـذا يوجـد في كل شيء ليـس فقـط الدراسـة الجامعيـة وبيئتهـا الإيجابيـة التـي غالبـا مـا تتسـم بحسـن السـلوك والاحـترام وتختلـف تمامـا عـن المراحل الدراسـية التـي سـبقتها. للبيئـة الجامعيـة تأثـير إيجـابي ملحـوظ عـلى سـلوك الطـلاب وتسـاهم كثـيراً في صقل أخلاقهم ومسـاعدتهم على تهذيبهـا والتعامل مـع مختلـف الأمور بشـكل أكـثر تأدبـا واحترامـا.

العلـم غالبـاً مـا يكـون مصحوبا بحسـن الخلق فـإن لم يردع الإنسـان خلقه الحسـن عـن كل مـا هـو قبيـح فإن العـالم أو صاحـب العلم يسـتحي أن تصدر منـه أقـوالاً أو أفعـالاً لا تليـق بمقامـه وشـهادته أو علمه. وهكذا يشـكل العلم حاجـزاً بـين المـرء وبـين التصرفـات والأقـوال غـير اللائقـة ويحذر مـن أن يصدر عنـه أي كلام أو فعل يؤثر على سـمعته وشـخصيته ومكانتـه الاجتماعية، لذلك يكـون للعلـم تأثـير مباشر أو غـير مباشر.

التأثـير المبـاشر هـو أن يسـاهم العلـم في صقـل أخـلاق صاحبـه ويجعلـه يتـصرف بحكمـة واحـترام لأنـه اعتـاد عـلى ذلـك وليـس اسـتحياءً مـن أن يقال عـالم ويتكلـم بـكلام لا يليـق. وأمـا التأثـير غـير المبـاشر وهـو حسـن الخلـق المصطنـع، أي عندمـا يحـذر العـالم مـن أن تصـدر منه أقـوال أو أفعـال لا تليق بـه فقـط لكيـلا يقـال عنه قـال كذا وكـذا، وهذا نوع مـن الرياء، ولكنه سـاهم في كبـت تصرفـات وكلـمات غـير لائقـة مـن شـخص معـين وهـو مـن حسـن الخلـق. وقـد أسـلفنا في هذا الكتاب أن سـجية حسـن الخلق قـد يتمتع بها أي شـخص ولا يشـترط أن يكـون متدينـا أو شـديد الالتـزام بالتعاليـم الدينية وقد يكـون حسـن الخلـق مكتسـبا أو حتـى مصطنعـا أحيانـا. وكل هـذه الأصنـاف مفيـدة لأنهـا تهـذب أخلاق الإنسـان وتحثـه على مراعـاة الآخريـن واحترامهم.

ولا يتوقـف ذلـك عنـد العلـم الشرعـي فقـط، بل العلـوم كلها وأهـل العلم هـم أحـرى الناس بحسـن الخلـق وأجدرهم بـأن يكونوا الأكمل إيمانـاً والعلماء

ورثة الأنبياء لأن الله سبحانه تعالى أكرمهم بما يستدلون عليه من خلقه، وهم أكثر الناس تصديقا لأن لديهم من العلم ما يكفي لإزالة كل ما يقع موقع الشك في نفوس الآخرين.

ومن هذه الناحية، يمكن لنا أن نلقي نظرة على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن موسى عندما سأل الله جل وعلا عن أدنى أهل الجنة منزلة، ففي نص الحديث: (سأل موسى ربَّهُ فقال: يا ربِّ ما أدنى أهلِ الجنةِ منزلَةً؟ قال: هو رجلٌ يجيءُ بعدما يدْخُلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ فيقالُ لَهُ: ادخلِ الجنَّةَ، فيقولُ: أيْ ربِّ كيفَ وقد نزل الناسُ منازِلَهم وأخذُوا أخَذَاتِهم؟ فيقالُ لَهُ: أترْضَى أنْ يكونَ لَكَ مثل ملْكِ ملِكٍ مِنْ ملوكِ الدنيا؟ فيقولُ: رضيتُ ربِّ، فيقولُ: لكَ ومثْلُهُ ومثلُهُ ومثلُهُ، فقال في الخامِسَةِ: رضيتُ ربِّ، فيقولُ هذا لَكَ وعشرةُ أمثالِهِ ولَكَ ما اشتَهَتْ نفْسُكَ ولذَّتْ عينُكَ. فيقولُ رضيتُ ربِّ! قال: ربِّ فأعلاهم منزِلَةً، قال أولئكَ الذينَ أردْتُّ، غرسْتُ كرامتَهم بيدِي، وختمْتُ عليها فلَمْ تَرَ عينٌ، ولم تسمعْ أُذُنٌ، ولم يخْطُرْ على قلْبِ بشرٍ).

لو نظرنا إلى هذا الحديث الشريف وفق التطورات العلمية الحديثة فإننا سنرى أموراً عجيبةً، لأن ظاهر الحديث يتطلب مساحات شاسعة لا يكاد يتخيلها العقل عندما نفكر بأدنى أهل الجنة منزلة وحيث أن منزلته تعدل ملك ١٠ ملوك من ملوك الدنيا. السؤال كيف ستكون منزلة أوسطهم وأعلاهم وكم عدد الكواكب أو كم مساحة الكوكب الذي سيغطي هذه المساحات اللامتناهية؟ وكم من الخلق سيدخلون الجنة؟ عند التفكر في هذا الأمر يخيل للمرء أن هذا يفوق قدرتنا العقلية حتى لتخيله، ولكن واجبنا كمسلمين الإيمان بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كنا غير قادرين على استيعاب أو تخيل الأمر.

في وقتنا الحاضر وبعد التطورات العلمية العظيمة وما نشاهده في الفضاء وما نشاهده عند الصعود في الطائرة والصور التي تُبَثُّ عبر الأقمار الصناعية

والمحطات الفضائية وغيرها، تجعلنا متيقنين أن هذا الأمر هين جداً، بل هو في منتهى السهولة بالمقارنة مع قدرة الله تعالى العظيمة لأننا نعلم يقيناً أننا نعيش على الأرض التي لا تساوي شيئا بالنسبة لمساحة الكون وأن الأرض لا تشكل إلا قطرة من بحر عظيم وربما مدته من بعده بحور أخر. عندما ندرك هذا نستشعر عظم خلق الله وندرك يقينا أن الله على كل شيء قدير وأن ما ورد في الحديث سهل المنال وسهل التحقيق وهو أهون على الله سبحانه مما نتخيل وذلك لما نراه أمام أعيننا من معجزات إلهية.

نحن نعلم أن مجرتنا، مجرة درب التبانة، التي تحتوي على مليارات الكواكب لا تساوي إلا نقطة صغيرة في رحاب واسع مقارنة بما تم اكتشافه من الكون، علما بأنه ووفق الاكتشافات العلمية الأخيرة فإن مجرتنا تحتوي على عدد هائل من الكواكب والنجوم يقدر عددها من ١٠٠ إلى ٤٠٠ مليار. إضافة إلى ذلك ووفق المصادر العلمية، فإن هناك من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مليار مجرة في الكون الذي نعيش في جزء لا يكاد يذكر منه وهو في منتهى الصغر بالمقارنة مع الكون الفسيح.

ووفقا لبعض المصادر العلمية أيضا، فإنه لم يتم اكتشاف أكثر من ١٪ من الكون، فتبارك الله أحسن الخالقين، وسبحانه وتقدست أسماءه وقدرته. الشاهد من هذا أنه عندما نعلم عِظَم خلق الله جل وعلا ونراه بأعيننا من خلال الصور والتلسكوبات الحديثة نكون عندها على يقين بأن الله جل وعلا قدير على كل شيء وأنه مهما بلغنا من العلم لا يمكن لنا تَخيَّل قدرته لما نراه من معجزات مبهرة أمام أعيننا ولم يكن لمن قبلنا سبيل إليها. وعِظَمُ الخلق يدل على عِظَمُ الخالق ويؤكد أن هذا الخلق العظيم لابد له من خالق عظيم لخلقه وتسيير أموره. وقد ساهمت هذه الاكتشافات العلمية في توسيع معارفنا وإدراكنا وعلمنا بِعِظَمِ خلق الله سبحانه وتعالى، والعلم دائما ينعكس إيجابا على مختلف جوانب حياتنا ويجعلنا أكثر تواضعاً وأحسن أخلاقا.

عندما نتفكر بالمساحات الشاسعة التي تفصل كل كوكب عن كوكب وكل مجرة عن مجرة وهي تقاس بملايين السنين الضوئية لا يسعنا إلا أن نقف مبهورين من عظم هذا الخلق. وهذا الخلق الذي نتحدث عنه ما هو جزء يسير جدا من كون وفضاء أعظم وأوسع يدل دلالة قاطعة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن قدرته جل وعلا لا متناهية وأنها لا يمكن وصفها أو تخيلها مهما شططنا في تفكيرنا وخيالنا لأن هذا أكبر من استيعابنا العقلي وأن عقولنا مهما بلغت من العلم هي أضعف من إدراك عظمة الله سبحانه وتعالى، وهذا مصداق حديثه صلى الله صلى الله عليه وسلم (أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ). من خلال الاكتشافات العلمية أدركنا جزءاً يسيراً من عظمة خلق الله، سبحانه وتعالى، ولكن يستحيل علينا أن نحيط إلا بقدر قليل من قدرته الحقيقية وعلمه لأنه كلما اكتشفنا أكثر نكتشف أن وراء هذا الاكتشاف أشياء أكبر وأعظم. وهذا يؤكد لنا أنه حتى قلوبنا وعقولنا لو حاولت أن تتصور الأمور بأعظم طريقة ممكنة لم تدرك شيئا من عظمة خلق الله، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الفرق بيننا وبين من سبقنا من المسلمين أننا نرى آيات الله سبحانه وتعالى بشكل أوضح عبر الاكتشافات العلمية، فحق علينا الاعتراف بقدرة الله سبحانه وتعالى والعمل على عبادته على الوجه الأكمل. أما من سبقنا، فالمؤمن يؤمن بما أنزله الله جل وعلا وبما سنه نبينا صلى الله عليه وسلم ولا يشك بذلك أبداً، بينما ضعيف الإيمان إذا قرأ هذا الحديث أو سمع به في الماضي ربما يساوره بعض الشك وربما يعمل الشيطان على تشكيكه بهذا الأمر، ومداخل الشيطان كثيرة جداً. ربما يبدأ الشيطان بِحّثِ ضعيف الإيمان على التساؤل حول واقعية هذا الأمر وهل يعقل أن أدنى منزلة هي بتلك القدر؟ وهل هذا الأمر ممكن الحدوث؟ وإن كان ممكنا أين تلك المساحات؟ ثم يحثه على المضي قدما نحو التساؤل عن أمور أخرى حتى

يشككه بخالقه وهذا هو هدف الشيطان إذا أنه ينتقل ويصعد من مرحلة إلى أخرى، وإن استطاع لن يتوقف إلا بكفر الإنسان.

أما نحن الآن، فنعلم ونرى عظم خلق الله سبحانه وتعالى الذي لا يجاريه خلق وحُقَ له سبحانه التفرد بالألوهية والربوبية وحُقَ له أن يعبد وحده لا شريك له، سبحانه وتعالى عن الند والشريك، وخاب وخسر كل من جعل له شريكاً أو نداً لأن هؤلاء الشركاء ما هم إلا عجزة لا يستطيعون فعل شيء، كما قال سبحانه وتعالى: (هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) – لقمان/١١.

بناء على ما تقدم، فإن من يعلم ليس كمن لا يعلم والعالم حري به حسن الخلق وكذلك العبادة لما لديه من العلم واليقين بأن الله سبحانه وتعالى هو مبدع هذا الكون العظيم وهو خالقنا وهو وحده الذي يستحق العبادة. ومن يعبد الله على علم يختلف ممن يعبد الله دون علم لأن العلم يقطع الشك ويقطع الطريق أمام وساوس الشيطان. العلم أيضا يوصل صاحبه إلى مرحلة الإحسان واليقين في العبادة وقد ذُكِر ذلك في القرآن الكريم في قصة نبي الله إبراهيم وعزير في سورة البقرة وقد وردت هاتين القصتين إحداهما تلو الأخرى.

في القصة الأول قال الله جل وعلا على لسان إبراهيم: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) – البقرة/٢٦٠. إبراهيم عليه السلام مؤمن وهو نبي وهو يعلم أن الله على كل شيء قدير، ولكنه أراد المزيد من العلم واليقين وأراد اطمئنان القلب عندما يرى إحياء الموتى أمام عينيه.

أما عزير فقد قال الله جل وعلا فيه: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) – البقرة ٢٥٩. في هذه الآية تساءل عزير عن قدرة الله على إحياء الموتى عندما مر بجنب مقبرة وهو أيضا يعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر على هذا الأمر وعلى كل شيء. عندما تساءل عن هذا الأمر أماته الله مائة عام ثم أحياه، وبعد أن أحياه الله جل وعلا علم يقينا بذلك، بل وبالتجربة إذ كان هو ميت وأحياه الله سبحانه وتعالى، وكذلك أمات وأحيا حماره معه ورأى كيف يقوم حماره من الموت ويعود صحيحا. القصتان تعطيان درساً في علم اليقين الذي لا شك فيه ومن هنا يتميز العالم عن غير العالم

أما نحن الآن فنرى من الآيات والمعجزات ما يجعلنا نعلم يقينا بأن الله على كل شيء قدير وذلك من خلال ما نرى في السماوات والأرض التي هي أعظم بكثير من خلق الناس، كما قال الله جل وعلا: (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) – غافر/٥٧. من أدرك عظم خلق الكون أدرك أن خلق الإنسان لا يتعبر شيئا مقابله وأن الله الذي خلق الكون قادر على أن يخلق مثله وأحسن وقادر على خلق الناس ومثلهم وأحسن. الآية تشير بوضوح إلى هذا الأمر وأوضحت أن أكثر الناس لا يتسمون بسمة العلم أيضاً.

كل هذه القصص والتفكر في الآيات تعزز العلم وتجعل من الإنسان أحسن خلقا وأكثر حكمة. والعلم يساعد الإنسان على بلوغ الكمال والإحسان في عبادته وأخلاقه ولذلك العلماء هم صفوة كل أمة وبهم تنهض الأمم وبزوالهم تزول وكلما زاد العلم في الإنسان زاد الإنسان خُلقاً وخشيةً

وإيماناً. لذلك حض الإسلام على العلم ومتابعة العلوم المختلفة ومجالسة العلماء والصالحين لأن جليسهم سينهل من علمهم ويتأثر بحسن خلقهم وسلوكهم.

الفصل الثامن

حسن الخلق

وركوب المعاصي

بما أن حسن الخلق يُبنَى على عدد من الخصال المختلفة فلا يشترط بمن حسن خلقه أن يكون من دين معين أو ملة معينة، فأي إنسان قد يتمتع ببعض هذه الخصال التي تجعله ممن حسن خلقه. ولا يعني أن من حسنت أخلاقه هو من الهداة المهتدين لأن بعضاً ممن حسنت أخلاقهم قد يرتكبون بعض المعاصي، ولكن المسلم يبلغ درجة الكمال بالعلم والعمل والخلق الحسن والالتزام بما شرعه الله سبحانه وتعالى وبما سنه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. لذلك فحسن الخلق سجية جميلة يمكن لأي إنسان أن يتحلى بها إن أراد ذلك ولا مانع حقيقياً أمامه إن هو عزم على الارتقاء بخلقه وأحب أن يعامل الناس بطريقة حسنة وأحب أن يعامله الناس كذلك.

من المسلمين من يتمتع ببعض هذه السجايا الحميدة، ولكنه أُبتلِي بمعاص معينة مثل بعض النساء اللواتي ابتلين بنزع الحجاب. فمن بين نساء المسلمين ممن يتمتعن بأخلاق حميدة وصدق في المعاملة وإحسان في العمل وصلاة وصيام، ولكن ابتلين بنزع الحجاب أو غيره من المعاصي الأخرى. فما ضرهن لو ارتدين الحجاب والتزمن بما فرضه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وتغلبن على وساوس الشيطان ومغريات الحياة. فحري بالنساء المسلمات ألا يهدمن وينقضن ما بنين من خير في أمور يمكن تجنبها بسهولة، وعليهن التفكير مليا في هذا الأمر وعليهن بتقوى الله جل وعلا قبل فوات الأوان. وإذا فعلن ذلك فالأفضل لهن أن يجعلن نية هذا العمل خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى حتى يفزن في الدنيا والآخرة وأن يبذلن الجهود للتغلب على نزغ الشيطان وألا يسمعن كلام المُخذّلين فعليهن بأنفسهن أولاً حتى ينجون من عذاب الآخرة.

بعض الناس يتساءل عن الفائدة التي يحصلن عليها النساء اللواتي هجرن الحجاب خاصة المتزوجات منهن وما يستفدن من هذا السلوك! هل هن فعلن ذلك حتى يقال فلانة جميلة أو متحررة؟ إن كان كذلك، فما الفائدة

مـن هـذا القـول؟ عنـد التفكـر في هـذا الأمـر يجـب أن نتذكـر الإثـم العظيـم التـي تجـره علينـا مثـل هذه الأفعـال! وهل هنـاك فائدة؟ حقيقـة، ليس هناك أي فائـدة، لأن الإنسـان اللبيـب والواثـق مـن نفسـه لا يهمـه مـا يقولـه الناس عندمـا يتـصرف بالشـكل الصحيـح وعندمـا يتـصرف بالطريقة التي تـرضي ربه جـل وعـلا عنه.

وهناك تسـاؤل آخر من أناس آخرين حيث يقولون إن تلك النسـوة خلعن الحجـاب حتـى يظهـرن بصـورة أجمـل؟ إن صـح هذا، فلـماذا يبديـن جمالهن لمـن لا يهمـه الأمـر وأزواجهـن أحـق وأولى بذلـك مـن عامـة النـاس! وبالطبع، هـذا الأمـر لا يحـل لا للمتزوجـات ولا لغـير المتزوجـات وهجـر الحجـاب أيضا لا يزيدهـن جـمالا ولـن يغـير مـن القـدر شـيئا فمـن كَتَـبَ اللـه لهـا أن تتزوج ملـكا فسـتتزوجه إن كانـت سـافرة أو متحجبـة ومـن كُتِب لها أن تتـزوج راعيا سـتتزوجه! ومـا يتوجـب فعلـه هنـا هـو التـوكل عـلى اللـه سـبحانه وتعـالى والعمـل عـلى طاعتـه وتجنـب معصيتـه لأنـه في النهايـة لا أحـد يفيـد أحدا إن كُتِـبَ عليـه الشـقاء كـما قال سـبحانه وتعـالى (الْأَخِـلَّاءُ يَوْمَئِـذٍ بَعْضُهُـمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِـينَ) – الزخـرف/٦٧.

ربمـا تقـول بعـض النسـوة اللواتي نزعـن الحجاب أنهن اعتـدن على ذلك ولا يسـتطعن التغيـير وربما نسـمع أعـذاراً أخرى! عـلى أية حال، كل هـذه الأعذار غـير مقنعـة وغـير منطقيـة، فـإن كانـت الحجـة تتعلـق بمظهـر حسـن فيجب عليهـن ألا يبديـن هذا المظهر الحسـن لمن هب ودب ثم إنهن لسـن في سـاحة عـرض أزيـاء وإنمـا في سـوق أو عمـل أو طريـق وهـذا لا يتطلـب منهـن فعـلا كهـذا. وإن قلـن العـادة، فهـذا أيضا ليس بمقنع لأن الإنسـان يسـتطيع أن يغير العـادات التـي ينـوي تغيرهـا ومثـل ذلـك مثـل حسـن الخلـق، يمكن للإنسـان اكتسـابه، والجميـع يعلـم أن هـذا الأمـر ممكـن وميسـور لأن هنـاك كثـير من النسـاء غـير المحجبـات تحجـبن والتزمـن بالحجـاب، وقـس عـلى ذلك مـا تبقى مـن المعاصي.

على هؤلاء النساء التفكير جيدا حول هذه الحياة وأن يعلمن أنه لا زال لديهن فسحة في هذه الحياة الدنيا ولا زال لديهن بعض الوقت لاستدراك ما فاتهن، ولكن لا أحد سوى الله سبحانه وتعالى يعلم أن ستطول حياتهن أم تنتهي فجاءة. فالعاقل من استغل وقته وفكر مليا بمآل أمره لأن أعمارنا قد تنتهي بأية لحظة، فقد يكون تبقى لنا في هذه الدنيا بعض السنين، أو الأشهر، أو الأيام، أو الساعات؛ لذا من أوجب الواجبات على المسلم ألا يؤجل التوبة وأن يقلع عن كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى حتى لا يموت وهو على تلك المعصية. إن فاجأ الموت أحداً من أصحاب تلك المعاصي ندم، ولكن لن ينفعه الندم بشيء لأنه لم يستغل الفرص التي كانت بين يديه في الحياة الدنيا.

عندما نتفكر حول هذا الأمر نجد أن هذه الحياة لا تستحق أن نعصي الله سبحانه وتعالى فيها ولا تستحق كل الوقت والجهد الذي نقضيه في أمورها لأن مآلها إلى الفناء عاجلا أم آجلا، وهذا لا يعني أن الإنسان لا يعمل لدنياه، ولكن يجب أن يعمل بشكل متوازن للدارين، وهذا هو النجاح الحقيقي والسعادة الحقيقية. النجاح الحقيقي هو أن تنجح في الدارين وليس في الدنيا فقط.

ربما تجد إنسانا ناجحا في حياته الدنيا نجاحاً كبيراً، ولكنه مهملا لأمور آخرته، فأعلم أن تفكير هذا الإنسان غير سوي وإن بلغ ما بلغ من العلم، فالعلم الذي لا ينفع صاحبه في الدارين ليس بنافع على الوجه الأكمل، أو نافع بشكل جزئي لأن الإنسان يستفيد منه فائدة كبير في الحياة الدنيا، ولكن إن خسر الآخرة فذلك هو الخسران، ولا شيء يعوضه عنها. خسارة الآخرة أكبر وأعظم من خسارة الدنيا لأن الدنيا فانية والآخرة باقية فلا مجال لمقارنة فانية بباقية. لذلك يجب ألا نقدم الحياة الدنيا على آخرتنا مهما كانت الأسباب والمبررات، بل على العكس تماما إذا تعارضت مصالح الدنيا مع آخرتنا وجب علينا تقديم مصالح الآخرة لأنها هي الأصل وإليها المنتهى أما الدنيا فمصيرها الفناء وإن طالت.

قد تطول بنا الحياة الدنيا، ولكن السؤال كم سنعيش؟ هل سنخلد فيها؟ بالطبع لا! فهي إلى زوال ولو بلغ عمر أحدنا المائة. فإذا بلغ المائة، فإنه سيشعر أن كل السنين الماضية مرت عليه كحلم أو كأيام معدودة وهذا حال الدنيا، فهي لا يستقر على حال لها حال. دنيا كهذه، هل تستحق أن نعصي الله فيها؟ وهل تستحق من نساء المسلمين أن ينزعن حجابهن ويخالفن ما أمر به الله سبحانه وتعالى؟ من يفكر بهذا جيداً يدرك الإجابة والمهم هو ليس إدراك الإجابة وإنما هو التطبيق والتنفيذ لما يرضي الله جل وعلا. وإننا ندعو الله جل وعلا أن يعين جميع المسلمين والمسلمات على الإقلاع عن المعاصي والتزام طاعته والاستعداد لما هو آت، وأن يكون أفضل مما نحن فيه.

والنصيحة موصولة إلى كل من بدا عليه مظاهر التدين وهو خلاف ذلك لأنه يسيء لدينه أكثر من غيره رغم أن هذا القياس قياس خاطئ فلا يجب تقييم الشخص وفقا لمظهره، ولكن للأسف هذا الأمر موجود في زماننا. عندما ترى شخصاً ملتحياً تتوقع منه الالتزام وحسن الخلق والأدب وإذا تلكم خلاف ذلك سقط من عينك، ولكن الخطأ عند بعض الناس ممن يبنون أحكاماً على هذه المظاهر فإذا أخطأ هذا الرجل قالوا المتدينين يفعلون كذا وكذا، دون أن يعرفوا التزام هذا الشخص حيث إنهم بنوا حكمهم على لباسه أو لحيته! على الأشخاص الذين تبدوا عليهم علامات الالتزام الحذر وحسن الخلق والسلوك حتى لا يبني الجهلة من الناس أحكامهم على مظاهرهم فيكونون سبباً في زيادة ضلالهم.

أحد الأخطاء التي يرتكبها بعض المسلمين ممن ركبوا المعاصي أنهم يظنون أنهم لا يستطيعون الإقلاع عنها وهذا خطأ جسيم إذ إن الإنسان يستطيع أن يروض نفسه وهواه إذا عليت همته وأخلص النية وأصر على تحقيق مبتغاه. ومن هذه الأمثلة الإدمان على التدخين والمخدرات ولبس الفاحش من الثياب، فقد نجح كثير من الناس في التغلب على هذه الشهوة

بعد أن استمروا عليها سنين؛ لأنهم عقدوا النية الصادقة وعزموا فنجحوا في تحقيق هدفهم. آخرون يقولون إنهم لا يستطيعوا ترك الدخان وأنه من الصعب عليهم الشروع بهذه الخطوة الحسنة. على أية حال، هؤلاء الأشخاص يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم يستطيعون وأنه لا شيء يمكن أن يوقف عزيمتهم إذا صدقوا، ولكنهم مترددون ويبحثون عن الحجج والأعذار حتى يستمروا بما هم عليه.

من الشباب من أدمن على بعض المعاصي الأخرى التي تؤثر كثيرا على خلقهم وتشوهه مثل الكلام البذيء ومشاهدة المحظورات ومرافقة قرناء السوء والبعد عن العبادات كقلة الاهتمام بالصلاة ومتابعة أخبار المفسدين من الرجال والنساء. لذلك حث الإسلام الشباب على الزواج والتحصن لأنه يعينهم على تجنب مثل هذه المعاصي خاصة إذا كان لديهم القدرة لذلك، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ). وفي حال عدم الاستطاعة حث النبي صلى الله عليه وسلم الشباب على الصيام لأنه أيضا يعينهم على التغلب على هوى النفس وعدم الانخراط بالمعاصي.

إذا ما سألنا أنفسنا عن الفائدة الحقيقية من الانخراط بالمعاصي ومشاهدة ما حرم الله، فما هي الإجابة؟ بالطبع، ليس هناك فائدة سوى مضيعة الوقت وزيادة الإثم الذي سيسجل على كل من اقترفه حتى يمتلئ سجله بالوزر والآثام، كما قال الله جل وعلا: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) المجادلة/٦. فهذه المتعة المؤقتة ستذهب خلال دقائق، ولكن إثمها يكون قد سُجِل على المرء ويبقى معه إلى يوم القيامة، فهل هذا يستحق أن نفعله؟ كل هذه الأمور تنافي حسن الخلق الذي تربينا عليه ومن حسن خلقه فإنه يعف نفسه عن مثل هذه الأمور لأنه يستحي أن يراه الناس على هذا الحال.

وإن كنـا نسـتحي أن يرانـا النـاس عـلى هـذا الحال، فـالأولى بنا أن نسـتحي أن يرانـا اللـه سـبحانه وتعـالى، كما قـال القحطـاني رحمـه الله:

وإِذا خَلَـــوتَ بِرِيبَــةٍ في ظُلمَــةٍ   والنَفــسُ داعيَةٌ إلى العِصيـــانِ

فاِستَحيِ مِن نَظَرِ الإِلَهِ وقـل لهــا   إنَّ الَّـــذي خَلَـــقَ الظَـلامَ يَران

فـإن حسـنت أخـلاق المسـلم وراعـى العـادات والأعـراف واسـتحى أن يراه اللـه جـل وعـلا أو النـاس عـلى مـا لا يحبـون وعمـل بمقتـضى هـذا، فإنـه مـن الموفقـين الذيـن يرجـى لهـم الفـلاح في الدنيـا والآخـرة. وهـذه الأمـور كلهـا مطلوبـة مـن المسـلمين بـكل زمـان ومـكان لأن الإسـلام يدعو إليها وشـدد على ضرورة التمسـك بهـا لمـا لهـا من دور كبير في إنشـاء أجيـال ومجتمعات صالحة تسـودها روح التعـاون والمشـاركة، بـل ويعينـون بعضهـم بعضـا عـلى التحـلي بمختلـف الفضائـل والسـجايا الحميـدة وعـلى رأسـها حسـن الخلق.

الفصل التاسع

نواقض حسن الخلق

هناك عدد من الأمور التي تؤثر على حسن الخلق وتقوضه مثل الغضب والكذب والخيانة والكِبر والكلام غير اللائق الذي انتشر مؤخرا في بعض الدول الإسلامية ومنه السب والشتم على مواقع التواصل الاجتماعي وغير ذلك. إن بعض الناس لا يلتفتون إلى ما يقولون أو يعيرون اهتماماً لما يصدر عنهم من كلام أو كتابة رغم أن كل ذلك مسجل عليهم وهو في ميزان حسناتهم إن كان خيرا وفي ميزان سيئاتهم إن كان شرا.

رُبَّ فعل واحد أو كلمة واحدة تشوه الصورة الجميلة للإنسان وتُنّفِرُ منه الناس وربما كانت سببا في هلاكه كما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالى مَا يُلقِي لهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّه بهَا دَرَجاتٍ، وَإنَّ الْعبْدَ لَيَتَكلَّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعالى لا يُلْقي لهَا بَالًا يهوي بهَا في جَهَنَّم). فإن كانت الكلمة السيئة قد تودي بصاحبها، كذلك الكلمة الطيبة قد ترفع درجة صاحبها إلى أعالي الجنان؛ لذلك حري بالمسلم أن يراقب كلماته وكذلك كتاباته على مواقع التوصل الاجتماعي وغيرها؛ لأن كلماته أو كتاباته كلها مسجلة له أو عليه. وعلى المسلم أن يحذر من عاقبة ذلك، لأن الحديث نص على عظم ثواب الكلمة الطيبة، ولكن بنفس الوقت نص على عظم وزر الكلمة إن لم تكن كذلك، وصدق الشاعر إذ قال:

وَما مِن كاتِبٍ إلا سَيفنى ... وَيَبقي الدَهر ما كَتَبتَ يَداه

فَلا تَكتُب بِيَدك غَير شَيءٍ ... يَسرك في القِيامة إن تَراه

وطالما أننا تحدثنا عن الغضب، فلابد من توضيح نقطة مهمة وهي أن ليس كل الغضبِ مذموم وأن الغضب خصلة من خصال الإنسان التي لابد أن يمر بها، بل هناك الغضب المحمود وهو الذي يقع إذا انتهكت محارم الله أو الغضب لظلم يقع على الشخص نفسه أو ظلم لا يرضه لأناس آخرين. ففي هذه المواضع لا يعيب الغضب الشخص، بل يرفعه ويعلي من شأنه إذا كانت غضبته لله سبحانه وتعالى أو لنصرة الحق.

وقد روي عن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أنه قال: (إذا لم يغضب الرجل لم يحلم؛ لأن الحليم لا يعرف إلا عند الغضب). فالغضب خصلة بشرية، ولكن علينا التحكم بها لكيلا تصدر عنا بعض الأقوال أو الأفعال ثم نندم عليها، بل نغضب في المواضع التي تستحق الغضب ونحلم في المواقع التي تستحق الحلم ونعفو عند المقدرة. هذه هي الخصال التي علمنا إياها ديننا الحنيف وهي خصال عظيمة تهدف إلى ضمان حياة صالحة وكريمة لكل إنسان والأخذ بأيدي كافة الناس لبلوغ سعادة الدارين، الأولى والآخرة.

ومن نواقض حسن الخلق الظلم، فمن حسنت أخلاقه لا يحب أن يَظلِم أحداً أو يُظلَمُ من قبل أحد. والظلم كله ممقوت ويكون أكثر مقتا إذا كان قد وقع من قبل الأقارب وذوي الأرحام أو عليهم؛ لأن وقعه على النفس يكون أقسى وأشد، كما قال طرفة بن العبد:

وَظُلمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

من حسنت أخلاقه يربأ بنفسه عن الظلم ويجاهدها على ألا يقع فيه لأنه سبب رئيس في انتشار الكراهية وعدم الرضا بين أفراد المجتمع، وإن انتشر على نطاق واسع في المجتمع فهذا يعني أن ذلك المجتمع قد أزفت ساعته وأنه إلى زوال. ودائما ما تكون عاقبة الظلم وخيمة وإن لم تظهر أثاره المدمرة بسرعة فإنه كالنار تحت الرماد سيشتد لهيبها في أي لحظة.

وقد نرى في أيامنا هذه في بعض المجتمعات الإسلامية ظلما يشيب له الوليد ولم يسلم منه حتى الأطفال ولا النساء ولا الصغير ولا الكبير، بل ويُقتَلُ الأطفال عياناً دون أن يرف جفن للظالمين، فإن لم تتدارك تلك المجمعات نفسها فستكون عاقبتها وخيمة. وقد يتساءل البعض قائلا: إذا كان كل هذا الظلم قائما والقائمون عليه يتمتعون بالصحة والعافية ولا شيء حدث لهم فإنهم ناجون وناجحون في حياتهم لأنهم حققوا مبتغاهم! الإجابة على ذلك هي أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل وسينال الظالمون ما يستحقونه

في الدنيا والآخرة وإن أملى الله سبحانه وتعالى للظالم فهذا لا يعني أنه نجا بفعلته، بل ربما أجلت له العقوبة لينال عذابا أكبر وأخزى في الآخرة.

هناك أيضاً بعض الممارسات السيئة التي يتبين لي أن تندرج ضمن نواقض حسن الخلق كالدخان والشيشة ولباس مالا يليق بالمسلم لباسه من الثياب الممزقة وما إلى ذلك. وفي لبس مثل هذه الثياب تقليد أعمى لغير المسلمين وهذا مما نهى الشرع الحنيف عنه. وعلى كل مسلم أن يكون فخوراً بإسلامه، فليس هناك نعمة أنعمها الله تعالى علينا أعظم من نعمة الإسلام، فالإسلام هو طريق حياة وهو سبيلنا إلى السعادة في الدارين ودونه الشقاء في الدارين حتى لمن عاش غنيا لأن الحياة الدنيا لا تخلو من المنغصات كالمرض وموت الأقارب والأحبة والمصائب التي تتوالى على الإنسان سائر حياته، إذا لا يوجد شخص في الكون لا يمر بهذه المنغصات، فالحياة الحقيقية هي حياة الآخرة لأنها خالية من هذه المنغصات ومن غيرها. وقد قال الله سبحانه وتعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ) – طه/١٢٤. فَذِكرُ الله جل وعلا يُوجِدُ في النفس الطمأنينة إضافة إلى أجره العظيم لمن داوم عليه وبه تتيسر أمور المسلمين وتسودهم السكينة والطمأنينة، فقد قال سبحانه في محكم تنزيله: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) – الرعد/٢٨.

ومن النواقض الأخرى الحسد والتسرع في الأقوال، والأفعال، وإطلاق الأحكام، والجهل. أما الحسد فهو داء يصعب دواؤه وهو أقدم داء عرفته البشرية، فبسببه رفض إبليس أن يسجد لآدم عندما أمره الله جل وعلا بذلك فقال الله سبحانه وتعالى: (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) – الأعراف/١٢، فكان الحسد هو سبب ضلال إبليس وبسببه رفض أن يسجد كما أمره الله سبحانه وتعالى وبسبب الحسد كُتِبَ على إبليس الشقاء وعلى كل من اتبعه إلى يوم الدين.

وكان الحسد سبب أو جريمة قتل عرفتها البشرية عندما قتل قابيل أخاه هابيل وقد وقعت هذه الجريمة بسبب الحسد أيضا، وذلك عندما قربا قربانا فقُبِلَ من أحدهما ولم يُقبَل من الآخر فحسده على ذلك وقرر قتله كما ورد في القرآن الكريم: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) – المائدة/٢٧. هذه هي الجريمة الأولى التي يرتكبها الإنسان على وجه الأرض ووقع القتل بعد أن حسد أحد الأخوين الآخر؛ لأن الله سبحانه وتعالى تقبل من أخيه ولم يتقبل منه. قصة إبليس وقابيل تظهر الآثار الكارثية للحسد وكيف يودي الحسد بصاحبه وأنه ربما يقوده إلى تصرف يندم عليه طوال حياته مثل قابيل، أو تصرف سيتسبب بشقائه وهلاكه وخلوده في جهنم كتصرف إبليس.

أما في حياتنا اليومية، فالكل يعلم أن الحسد يولد الحقد والكراهية بين الناس إذ إن الحسود يتمنى زوال النعمة من المحسود دونما سبب وهذا يتناقض وحسن الخلق لأن المسلم يحب الخير له ولغيره. فالمسلم أحيانا يرى نعمة أو ميزة معينة عند أحد أخوته من المسلمين وتعجبه فهنا يجب عليه أن يبارك له عليها ويتمنى له الخير ولا ما نع من أن يغبطه أو أن يتمنى لنفسه مثل صاحبه مع الدعاء لصاحبه بالبركة وأن يبارك له الله تعالى فيما رزقه ويتمنى بقاء وبركة نعمة صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحسد والغبطة.

وفي سياق الحديث عن النعم، لا يمكن لشخص أبداً أن يحس بالقيمة الحقيقية للنعمة حتى يفقدها. ويمكن لنا أن نحس جزئيا بهذا النعم إذا فكرنا بمن فقدها وعندما نقارن حياة المسلمين بغير المسلمين ونتأمل كافة جوانب حياتهم وجوانب حياتنا فقد يتميزون عنا أو يتفوقون علينا ببعض الجوانب مثل الجوانب المادية والخدمية. ومن هنا يجب أن ندرك بأن الجوانب المادية ليست كل شيء، فمن رزق مالاً كثيراً، لكنه غير مرتاح

نفسيا أو ربما يعاني من مرض معين حيث إن كل ماله ربما لا يستطيع أن يشفيه منه، فما قيمة ماله مع هذا المرض! أما المسلم فأمره كله خير فهو مأجور على المرض إن صبر وحمد الله في الدنيا وله جزيل الثواب في الآخرة، لذلك ينبغي للمسلم أن يكون حَمَّاداً لله على كل حال وأن يحمده ويشكره في السراء والضراء.

ومن نواقض حسن الخلق الجهل وضده العلم والعلم يبني والجهل يهدم كما قال الشاعر:

العلمُ يبني بيوتاً لا عمادَ لها والجهلُ يهدمُ بيوتَ العزِ والكرمِ

الجهل داء عضال لا يشفيه إلا نقيضه وهو العلم، والأمم يستحيل لها أن تنهض إلا إذا تصدرها العلماء والحكماء ومتى ما تصدرها الجُهَّالُ فكبر عليها أربعاً، لأنها تكون قد دخلت مرحلة الموت السريري أو الاحتضار الذي لا فواق بعده ولن تبرأ منه مالم يتغمدها الله سبحانه وتعالى برحمة منه ويَمُنَّ عليها ببعض العلماء المصلحين. يُعَدُ الجهل أعظم هادم للمجتمعات والأمم وهو السبب الأول في تراجعها وتخلفها عن ركب الحضارة، كما أن الجهل يقلل من احترام الأمم الأخرى للأمة الجاهلة، بل ويفتح عيون تلك الأمم لمحاولة السيطرة عليها والتحكم بها واستغلال ثرواتها.

ومن نواقض حسن الخلق الكذب والخيانة، فمن حسن خلقه يبتعد عن كل ما يشوهه، بل ويعمل على تهذيب خلقه ومساعدة الآخرين على تهذيب أخلاقهم فبحسن الخلق ترقى الأمم والمجتمعات وتزدهر الحياة، كما قال الشاعر:

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

الحماقة من نواقض حسن الخلق أيضاً، ويستحيل أن يجتمع في إنسانٍ حسن خلق وحماقة. والحماقة تختلف عن الجنون، فالمجنون معذور ومرفوع عنه القلم لأنه لا يدرك ما يفعل ولا يستوعب ولا يدري إن كان سلوكه أو تصرفه صحيحا أم خاطئا، ولكن الأحمق هو من كان لديه قدرةٌ على التمييز لكنه يتصرف ببلادة وبدون تفكير في العواقب. والفرق بين الاثنين كبير لأن المجنون لديه مرض عقلي مستعصٍ لا يمكن علاجه، والأحمق سليم العقل، لكنه لا يستخدم عقله للتفكير بالشكل الصحيح رغم أنه يستطيع التفكير إن هو أراد ذلك، وصدق الشاعر إذ قال:

لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إلاّ الْحَماقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيْهَا

ومن نواقض حسن الخلق التشدد مع قلة العلم خاصة في الأمور الشرعية وإذا اجتمع التشدد مع الجهل فإنهم يشكلان داء عضالا يصعب شفاؤه. إن ديننا الإسلامي دين معتدل يحث على الاعتدال والوسطية في كل شيء وكما قالت أمنا عائشة، رضي الله عنها وعن أبيها، (ما خُيِّرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَينَ أمرَيْنِ قَطُّ، إلَّا اختارَ أيسَرَهما، إلَّا أنْ يَكونَ فيه إثْمٌ، فإنْ كان إثْمًا كان أبعَدَ النَّاسِ منه). فاليسر مطلوب والوسطية مطلوبة لأنهما أنفع وأدوم للحياة وبذلك يستطيع الإنسان أن يستمر في الحياة دون أن يحمل نفسه ما لا تطيق.

وهناك فرق كبير بين المتشدد والمعتدل لأن المعتدل هو الذي يتبع الوسطية وغالبا ما تكون نفسه طيبة ويتمنى الخير للجميع ولا يبحث عن زلات المسلمين وهو خلاف المتشدد الذي يشعرك أن هدفه الأول هو إثبات أن بعضاً أو كثيراً من المسلمين على خطأ وليس منهم على الطريق المستقيم إلا هو ومن اعتنق نفس أفكاره، بينما يفكر المعتدل بصلاح المسلمين ويلتمس لهم العذر ويدعو لهم بالهداية. إن أفكار بعض المتشددين بعيدة عن جوهر الإسلام لأن الإسلام يدعو إلى الخير

ويدعـوا إلى اللـين واليـسر والتعامـل برفـق مـع المسـلمين ويحـث كل مسـلم عـلى الدعـاء لجميـع المسـلمين.

المتشـددون غالبـا مـا يبحثـون عـن زلات وأخطـاء المسـلمين والمعتدلـون إذا لاحظوهـا دعـوا لإخوانهـم بالهدايـة والصـلاح والرشـاد ولا يحـب المعتـدل أن يـرى المسـلمين عـلى هـذه الحـال، بينـما المتشـدد إذا علـم شـيئاً مـن هـذه الأمـور فإنـه يشـعرك كـما لـو أنـه اكتشـف اكتشـافاً عظيـماً سـيكون لـه تأثـيراً بالغـاً عـلى مسـار حيـاة البشريـة عـلى هـذا الكوكـب! عنـد اكتشـاف بعـض هـذه الأمـور، يبـدأ أحيانـاً هـذا المتشـدد بالدعـاء عـلى المسـلمين بـدلا مـن الدعـاء لهـم بالهدايـة وأن يردهـم اللـه جـل وعـلا إلى دينهـم رداً جميـلا. والمعتـدل همـه صـلاح المسـلمين بينـما المتشـدد همـه إثبـات أن مـن خالفـه الـرأي عـلى خطـأ وإن كان مـن خالفـه الـرأي محقـا.

يجـب عـلى المسـلم التمسـك بحسـن الخلـق والابتعـاد عـن كل نواقضـه، وكذلـك إحسـان الظـن بالمسـلمين خاصـة عندمـا يتكلـم عـن عامـة المسـلمين وكذلـك تجنـب مبـدأ التعميـم فهـذا المبـدأ غالبـا مـا يكـون مغلوطـا. ومثـال ذلـك إذا رأيـت سـلوكا لا يـسرك في مدينـة مسـلمة، فالبعـض ربمـا يقـول إن أهـل هـذه المدينـة فاسـدون دون أن يكـون لديـه معلومـات كافيـة عنهـا ويكـون قـد أطلـق حكمـه بعـد أن رأى سـلوك بعـض أو كثـير مـن سـكانها. هـذا هـو مبـدأ التعميـم وهـو مبـدأ أعـوج ولـن يسـتقيم لأنـه يسـتحيل أن يكـون كل سـكان تلـك المدينـة عـلى شـاكلة واحـدة وإن رأى سـلوك كثـير مـن النـاس فهنـاك أنـاس أكـثر لم يـر سـلوكهم؛ لذلـك يجـب الحـذر مـن هـذا الأمـر.

ويجـدر بالمسـلم عندمـا يـرى مـا لا يـسره بـين المسـلمين أن يدعـو لهـم بالهدايـة لا أن يدعـو عليهـم وليتذكـر أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، عندمـا آذاه الكفـار كثـيراً، لم يـدع عليهـم رغـم ذلـك الأذى، ولكنـه قـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: (بـل أرجـو أن يُخْـرِجَ اللَّـهُ مِـن أصلابِهِـم مَـن يعبـدُ اللَّـهَ،

لا يـشرِكُ بِـهِ شـيئًا). هـذا هـو موقـف رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم مـن الكفـار، فـما بـال المتشـدد يشـتد عـلى المسـلمين أنفسـهم ويصفهـم بمـا لا يليـق بهـم. ومـن هنـا لا يسـعنا إلا أن نقـول لا حـول ولا قـوة إلا باللـه وهدانـا اللـه وإياهـم والمسـلمين أجمعـين إلى مـا يحـب ويـرضى.

الفصل العاشر

هل حسن الخلق سجية فطرية تولد مع الإنسان أم سلوك مكتسب؟

في الواقع، رغم أن حسن الخلق يبدو كسجية فطرية لدى بعض الناس لأنهم تمتعوا بهذه الخصلة الطيبة مذ نعومة أظفارهم، إلا أن الواقع وما نشاهده من أمثلة كثيرة من حياتنا اليومية يؤكد أن حسن الخلق هو سلوك مكتسب. وهناك العديد من الأمور التي تساعد الإنسان على حسن الخلق على رأسها الدين والتعاليم الدينية والعلم بشكل عام ومن ثم البيئة ومخالطة الأخيار والكثير من الأمور الأخرى. قد تجد عائلة جميع أفرادها يتحلون بحسن الخلق وكأنهم ورثوه وراثةً أو هكذا يبدو، ولكن في الواقع هذا من تأثير البيئة على الإنسان وليس وراثةً كما يظهر، لأن هذه العائلة نفسها قد تتغير أخلاق أحد أفرادها سواء إلى الأفضل أو إلى الأسوأ. لذلك حسن الخلق ليس بثابت، بل هو متغير ويزيد وينقص وفقا للظروف والحوادث والأحوال التي يمر بها الإنسان ووفق البيئة التي يتواجد بها ومثال ذلك هو حسن الخلق بين بعض الأشخاص الذين يسافرون إلى دول أخرى.

بعض هؤلاء الأشخاص يحافظون على نفس الخلق والسلوك الذي اعتادوا عليه في بلدانهم وبعضهم يتخلون عن بعض الثوابت والعادات الحسنة التي كانوا يلتزمون بها كتغيير الملابس وأحيانا استخدام بعض الألفاظ وممارسة أمور أو أنشطة أخرى لا يمارسونها في بلدهم الأصلي. بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الخلق الذي يتحلون به ليس بثابت، بل يزداد أو ينقص أو يبقي على حاله وذلك يعتمد على قوة وإرادة الشخص نفسه.

من أشد العوامل تأثيرا على الخلق وما يساهم في صقل أخلاق الناس هو الدين والالتزام بالشريعة لأنها تحث أتباعها على هذا، بل وَرَغَّبتهم به من خلال الأجر العظيم الذي وُعِدَ به من تمتع بهذه السجية الحميدة. فلن تجد مؤمنا حسن الإيمان بأخلاق سيئة لأنه يعلم أن الشريعة نهت عن كل ما هو سيء وبذيء بدءا من الكلام الفاحش وغير الملائم وصولا إلى الأفعال التي قد تؤذي أي شخص آخر، بل وأوصت بمعاملة حتى الحيوان برفق وكافة المخلوقات الأخرى.

أما العلم فهو أيضا يصقل الأخلاق ويحسنها ويبدو ذلك جليا عندما نمعن النظر في سلوك أهل العلم من مختلف التخصصات حيث إننا نجد أن العلم يساهم في صقل أخلاق العلماء لذلك تجد سلوكهم وكلامهم مختلف عن عامة الخلق. ولا يشترط وجود هذه الأخلاق الحميدة في هؤلاء العلماء منذ الصغر، بل إن بعض العلماء ربما لم يتحلوا بأخلاق حسنة قبل الشروع في رحلة طلب العلم، ولكن العلم غير حياتهم رأسا على عقب ومثال ذلك مالك بن دينار وغيره، كما أشارت كثير من الروايات.

كان مالك بن دينار شرطيا وكان من المدمنين على شرب الخمر والمعاصي وظلم الناس، وفقا لبعض الروايات، إلى أن تاب فانقلبت حياته بعد ذلك من الضياع والمعاصي إلى مكارم الأخلاق والعلم والعمل النافع له ولغيره. بعد الضياع الذي عانى منه في شبابه، عمل بجد حتى يعوض ما فاته وانكب على طلب العلم حتى أصبح من أشد الناس تأثيرا على الآخرين ولعب دور المصلح الاجتماعي إذ كان يدعو الناس إلى الخير وصالح العمل وما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة. ومن القصص التي رويت عن شدة تأثيره على الناس أنه دخل لص ليسرق من بيته ذات ليلة فلم يجد اللص شيئا ليسرقه، فرآه مالك وقال له إنك لم تجد شيئا من متاع الدنيا فهل ترغب بشيء من الآخرة؟ تفاجأ اللص بما سمعه وقال نعم! ثم طلب منه مالك بن دينار أن يتوضأ ويصلي ركعتين. بعد أن فعل اللص ما طلبه مالك، خرج معه إلى المسجد وسأله أحدهم عن اللص فقال جاء يسرق فسرقناه.

الشاهد من هذه القصة أن مالك بن دينار رحمه الله تعالى لم يكن يتحلى بحسن خلق نتيجة المظالم التي ارتكبها وسببها للآخرين، وإنما أصبح من كبار التابعين ومن أحسن الناس خلقا بعد تعلقه بالعلم الشرعي والاستقاء منه. لقد كان للعلم تأثيراً كبيراً على مالك وحول حياته من الضلالة إلى الهدى ومن الظلام إلى النور وساهم بعدها بنشر هذا النور بين أفراد المجتمع فكان ناصحا لنفسه ولغيره.

البيئة أيضا تلعب دوراً مهماً في التأثير على سلوك وأخلاق الناس فمن نشأ في بيئة صالحة يعتاد على مراعاة أمور كثيرة ويكون أشد حياء من الشخص الذي نشأ في بيئة فاسدة. ومثال ذلك بعض الأشخاص الذين عاشوا في بلدان عربية أو إسلامية ممن ينتشر فيها الفساد وخاصة الرشوة. لقد تربى هؤلاء الأشخاص على هذه الأمور الفاسدة فإن هم سافروا إلى بلد ملتزم بالقوانين ويحترم حقوق الأفراد فإنهم قد يلتزمون بها، ولكن متى ما سنحت لهم الفرصة لتحصيل شيء عن طريق الرشوة فإن كثيراً منهم سيفعلون إذا وجدوا من يستجيب لهم وإذا لم يردعهم دينهم أو حسن خلقهم. في بعض الدول العربية، يتعامل بعض الموظفين مع الرشوة وكأنها حق لهم ويأخذونها جهاراً نهاراً وعلى رؤوس الأشهاد لأن حكومات تلك الدول تغض النظر عن بعض الأمور الفاسدة وربما تشجع عليها أحيانا! وفي مثل هذه الدول، يتعرض من حسن خلقه ومن التزم بدينه للظلم لأنه يعلم أن الرشوة حرام وهو لا يريد دفعها، ولكنه يجبر على دفعها رغماً عنه لأنها أصبحت أمراً معتاداً وشبه رسمي.

هناك أيضا العديد من الصور والأمثلة من حياتنا اليومية التي تؤكد بأن حسن الخلق سلوك مكتسب وأن للبيئة دوراً كبيراً في التأثير عليه سلبا أو إيجابا. وليست البيئة فقط من يؤثر على الشخص، بل هناك أمور كثيرة منها المنصب والجاه وحتى المال أحيانا. فلو أن شخصاً من عامة الناس تسلم منصباً مهماً في الدولة، فهل أخلاقه ستبقى على ما كانت عليه؟ بالتأكيد لا! لأنه بعد المنصب الجديد سيغير من طريقة كلامه وسلوكه ليتناسب وحياته الجديدة مع المنصب الجديد، فيبدأ بتهذيب أخلاقه ويراقب كلامه حتى لا تصدر منه كلمة غير لائقة. ربما يكون تصرفه هذا رياء، ولكنه جزء من السلوك الحسن.

بعد تولي المنصب، قد يحذر هذا الشخص من كثير من الكلمات والألفاظ التي ربما كان يرددها كثيرا قبل المنصب؛ لأن سلوكه السابق لم يعد

يجدي نفعا مع وضعه الجديد الذي يتطلب طريقة معينة في الكلام وربما تؤدي بعض الكلمات إلى عزله من منصبه. ويَحسُنُ بهذا الشخص وأمثاله أن يكون الهدف من حسن خلقه هو إرضاء الله جل وعلا لأن المنصب ليس بدائم والحياة نفسها ليست بدائمة فإن أحسن في عمله فله أجره وإن أساء فعليه وزره، وقد أحسن ابن الوردي رحمه الله، إذ قال:

لا تُوازى لذةُ الحُكمِ بما ... ذاقَهُ الشخصُ إذا الشخصُ انعزلْ
فالولاياتُ وإن طابتْ لمنْ ... ذاقَها فالسُّمُّ في ذاكَ العَسَلْ
نَصَبُ المنصِبِ أوهى جسدي ... وعنائي من مُداراةِ السَّفلْ
قَصِّرِ الآمالَ في الدنيا تفُزْ ... فدليلُ العقلِ تقصيرُ الأملْ
إن منْ يطلبهُ الموتُ على ... غِرَّةٍ منه جديرٌ بالوَجَلْ

إن تأثر الناس بأخلاق بعضهم وتأثير البيئة والمنصب على الإنسان يؤكد أن حسن الخلق سلوك متكسب وأن بإمكان أي شخص تهذيب سلوكه وأنه لا عذر لمن ظن خلاف ذلك. عموما، البحث عن المبررات يعد من الضعف كمن يقول بأنه يريد أن يقلع عن التدخين لكنه لا يستطيع، وكمن يقول بأنه يريد أن يُحَسِنُ من سلوكه لكنه لا يستطيع. في الحقيقة، كلهم يستطيعون ذلك إن هم عقدوا النية الصادقة وأخذوا بالأسباب وتمتعوا بالعزيمة والإصرار على تحقيق ما يريدون.

ومن الأمور التي تؤثر إيجابا على حسن الخلق هي مخالطة الأخيار فالجليس والصاحب دائما يؤثرون على أقرانهم. من خالط العلماء تأثر بهم وبكلامهم ومن خالط السفهاء ناله شيء من سفههم إما عن طريق الكلام أو الأفعال أو حتى السمعة. فلا يوجد شخص عاقل محترم يحب مصاحبة السفيه لأنه سينظر إليه كما سينظر إلى صاحبه السفيه. ويستحيل أن تشاهد عالما مشهوراً ومشهوداً له بالصلاح مصاحباً لأحمق لأنه يربأ بنفسه عن تلك الصحبة ولا يرضى بها بتاتا.

بناء على ما تقدم، لو كان حسن الخلق سجية إذا لما تغير بعض الأشخاص من الأسوأ إلى الأفضل أو العكس، وإذاً لظل من كان خلقه حسن على شاكلته طوال حياته وظل من كان خلقه سيئا على شاكلته طوال حياته. لذلك لا يمكن لحسن الخلق إلا أن يكون سلوكا مكتسبا يستطيع أن يبلغه كل شخص إذا كانت لديه الرغبة والعزيمة لبلوغه.

وعلى كل إنسان أن يعلم بأنه لا شيء يأتي دون مقابل، بل كل أمر يحتاج إلى الجد والعمل لبلوغه. فمن أراد شيئا استعد له وأعد العدة واستمر في المتابعة حتى بلوغه. وفي طريقنا نحو تحقيق الهدف لابد لنا من مواجهة بعض العقبات فإن تمتعنا بالهمة العالية وبذل المطلوب لتحقيق أهدافنا السامية سنتغلب على كل العقبات وإن لم نك كذلك فسيكون مصيرنا الفشل مع توالي العقبات.

من أدرك هذه الأمور سيكون أبعد الناس عن الفشل لأنه سيتمتع بالمرونة الكافية التي تقيل عثراته، وهذا هو الفرق بين الشخص الجاد وغير الجاد، إذ إن الشخص الجاد يتوقع العقبات ويعمل على تجاوزها بينما الشخص غير الجاد ربما يدرك العقبات قبل الشروع في العمل، ولكنه لا يعمل بالشكل المطلوب لتجاوز هذه العقبات.

خاتمة

لله الحمد أولاً وآخراً ونشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وإن كنت قد أصبت فمن الله تعالى وحده وإن أخطأت فمن نفسي، ونسأل الله التوفيق والسداد لنا وللمسلمين جميعا. في ختام هذا الكتاب، نوجه دعوة لإخواننا وأخواتنا ليكونوا مثالا لغيرهم وأن يكونوا عونا للإسلام والمسلمين لا عالة عليهم، فالمؤمن القوي خير من الضعيف كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: (المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف)؛ لذلك ينبغي للمسلم أن يكون نَفَّاعاً لنفسه ولغيره، وأن يكون هذا النفع للأقرب ثم الأقرب، ويجب عليه أيضا أن يحب الخير لإخوته من المسلمين كما يحب لنفسه وبهذا تكتمل أخلاقنا ونساهم في تكوين المجتمع الإسلامي المثالي الذي تسوده المودة والاحترام.

من ناحية أخرى، عندما يتأمل الفرد ويدرك الأهمية العظيمة لحسن الخلق وما ينتج عنه وعن المعاملة الحسنة من تآلف واحترام بين الناس، فإن هذا الفرد سيكون مستعدا للأخذ بالأسباب التي تعينه على حسن الخلق. وعلينا أن نعلم أنه بحسن الخلق نرتقي إلى مصاف الكمال والرشد وبه نفوز بكسب ود واحترام الناس في الدنيا ورضى الله جل وعلا والقرب من نبيه صلى الله عليه وسلم في الآخرة. فسجية هذه نتائجها حري بنا أن نبذل لها كل سبب وجهد لنبلغها ونعين الناس وننصحهم بالعمل على بلوغها أيضا وبهذا نكون قد وفينا إخواننا حق النصح لهم ولما يعينهم في حياتهم ليعيشوا حياة طيبة كريمة، وأن يفوزوا بالجنان في الآخرة وهو الهدف الأسمى الذي يسعى إليه كل مؤمن.

كما يجب علينا ألا نغفل عن أهمية النية كما علمنا الإسلام فالنية أصل لقبول الأعمال من الناحية الشرعية ومن الناحية الحياتية هي أصل كذلك لأنها تثبت ما ننوي فعله، بمعنى آخر إنها تؤكد على هدفنا وما ننوي

فعلـه وتؤكـد أن تصرفنـا لم يكـن تصرفـا عشـوائيا إنمـا هـو مخطط لـه وهادف إلى أمـور بعينهـا. ومثـال ذلـك، عندمـا نحـاول التأثـير عـلى الآخريـن بأخلاقنـا الحسـنة، فعندمـا نسـتحضر النيـة فإننـا نعلـم الهدف ونعلـم ما نفعـل ونعلم مـا نخطـط لـه، وغيـاب النيـة يـدل عـلى قلـة التخطيـط وربمـا يسـبب بعـض العـثرات قبيـل بلـوغ الأهـداف لأن وجـود الأفـكار والخطـط المسـبقة دائمـا ما تسـاعد عـلى تحقيـق الهـدف، وفي كل هـذه الحـالات يبـدو لي أن اسـتحضار النيـة يمثـل دافعـا قويـا لترتيـب العمـل وإنجـازه عـلى الوجـه الأكمل.

ومـن الأمـور التـي تعـين النـاس على حسـن الخلق والرقـي بأخلاقهـم الثقة بالنفـس؛ أي أن الفـرد يجـب أن يكـون واثقاً من أنه كفؤ لهـذا الهدف العظيم. إذا كان هـذا الفـرد متحمسـا وواثقـا فإنـه سـيتمكن مـن التغيـير نحـو الأفضل مـن خـلال المثابـرة والابتعـاد عـن التسـويف. الثقـة بالنفـس تمثل أيضـا دافعا قويـا لمواصلـة العمـل والجهـود لبلـوغ الغايـة وهي أفضـل دافـع للتغلب على العـثرات فمـن كان واثقـاً لـن يتوقـف عنـد أول عـثرة يتعثرها، بل يتابع المسـير حتـى النهايـة وحتى بلـوغ الهـدف النهائي.

ولابـد مـن التفكـر بحـال هـذه الحيـاة التـي تسـمى "الدنيـا" والتـي تعني "السـفلى"، فهـي لا تسـتحق أن نضيـع جـل جهدنـا وتفكيرنا عليهـا وألا نهملها عـلى الجملـة، بـل هـو حل وسـط بـين الاثنين. عـلى الفـرد ألا ينـسى نصيبه من الدنيـا ومـا أحلـه اللـه تعـالى لـه، ولكـن الخطـأ يكمـن في صرف جـل اهتمامنا لهـا وإهـمال آخرتنـا التـي هـي الأسـاس وهـي الباقيـة فـلا تهمـل الباقيـة على حسـاب الفانيـة. إن حياتنا سـتنتهي يوما مـا ولا نعلم إن كان ذلـك اليوم قريباً أم بعيـداً، لكننـا نعلـم يقينـاً بـأن الآخـرة باقية ولا مـوت فيها وأن الدنيـا زائلة مهـما طالـت بنـا السـنون؛ لذلـك وجـب الجـد والعمـل عـلى كل عاقـل يـدرك هـذه الحقيقة.

ومـما ينبغـي علينـا تذكـره هـو التأثير عـلى الآخرين بشـكل إيجـابي. ينبغي علينـا أن نكـون إيجابيـين وأن نضـع بصمتنا الجميلة حيث يمكـن لنا أن نضعها

لعل الله جل وعلا أن ينفع بنا فنكون سبباً لهداية الناس أو سبباً في تعزيز مكارم الأخلاق. وعلى الفرد هنا أن يفكر كيف يكون قدوة للآخرين. كن قدوة لعائلتك وغيرهم خاصة أطفالك فإنهم يقلدونك في كل شيء فإن تكلمت بكلام غير لائق فإنهم سيفعلون كما تفعل وإن لبست لباساً غير لائق سيلبسون مثلك والعكس صحيح لأن الأبناء غالبا ما يتأثرون بالآباء. وفي الوقت ذاته، يتأثرون بهم إيجابيا عندما لا يسمعون كلمات غير لائقة من الآباء ولا يرونهم يسلكون مسلكاً غير لائق. وهذا طبعا على العموم ولكل قاعدة شواذ، فقد تجد الابن حسن الخلق والتربية وقد يكون أبوه خلافه، وقد يكون الأب صالحا والابن على غير ذلك. ما يتوجب علينا فعله هنا أن نحسن ما استطعنا ونبذل الأسباب لذلك وبإذن الله تعالى لن يخيب مسعانا.

ومن حسن الخلق ألا ترد على الإساءة بالإساءة خاصة إذا كنت قادرا على الرد وهذا من الحلم؛ فالحليم هو من صبر وجاهد نفسه على تحمل بعض الأمور التي يراها ولا تسره رؤيتها لكنه يتجاوز عنها حتى لا يتسبب في قطع العلاقات والصلة بين الأرحام والأصدقاء وغيرهم. والحلم أيضا من حسن الخلق وله أهمية كبيرة في تعزيز الروابط الاجتماعية وأواصر المحبة بين الناس.

كن مثالا جيدا لزملائك في العمل أو السفر أو الجامعة وفي السوق وفي كل مكان فالإنسان دائما يؤثر على غيره سلبا كان أم إيجابا، فلعل أمراً يسيراً أو كلمة أو فعلاً بسيطاً يغير حال شخص آخر ويقلبه رأسا على عقب. رب فعل بسيط أثر بإنسان فغير حياته من الضلالة إلى الهدى ومن الظلام إلى النور وغالبا ما تحدث هذه الأمور بين الأصدقاء فهم شديدو التأثير على بعضهم البعض.

اعتبر هذا الصنيع جزءا من معروف تسديه للآخرين وكن فاعلا للخير قوالاً للحق وناصراً له حتى تعيش مرتاح البال أنت ومن يحيط بك. ومن

المهم أن يتحلى بالأخلاق الحسنة من كان يريد التأثير على الآخرين ولا يكون ممن يقولون شيئا ويفعلون خلافه لأن لا مصداقية لهؤلاء ولن يقبل الناس منهم رأيا ولا نصيحة، مثلهم بهذا كمثل بني إسرائيل عندما قال الله جل وعلا فيهم: (أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) – البقرة/٤٤. وهذا الفعل أيضا لا يليق بأي مسلم أو شخص أحب أن يكون على خلق، كما قال أبو الأسود الدؤلي رحمه الله تعالى:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

من خلال هذه الأفعال تكون بصمتك حاضرة بكل الأماكن التي تمر فيها، وستكون حياتك نافعة لك أولاً ولمن حولك ثانياً وكذلك صحبتك لأنك ستكون ممن يفتقده الأصدقاء إذا غبت عنهم لأنهم كانوا يسعدون بصحبتك وسيدعون لك بظهر الغيب كلما تذكروك. من الأمور المهمة أيضا ألا نستصغر أفعال الخير وإن كانت قليلة أو هينة في نظرنا لأننا لا نعلم حقيقة وقعها على الآخرين، فرب فعل بسيط في نظرنا يكون له تأثير عظيم على بعض الناس، فقط توكل على الله سبحانه وتعالى وأخلص النية وسترى بإذن الله جل وعلا النتائج التي تسرك في الدنيا والآخرة.

إهداء

أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لمركز دار القرآن – فرع الجهراء وكافة العاملين فيه، والشكر موصول لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية على اهتمامها بشؤون القرآن الكريم والعلم الشرعي وتعليمه من خلال مراكز دور القرآن التي أضحت منارة لنشر العلم الشرعي بين الراغبين في تحصيله في مختلف المحافظات الكويتية. وإني أحمد الله العلي العظيم إذ يَسَّر لي الالتحاق بهذا الصرح العلمي والتخرج منه بعد إتمام كافة متطلبات دراستي الشرعية، ونسأله جل وعلا أن يوفقهم ويبارك لهم في جهودهم وأن يسدد خطاهم وأن يجعلنا وإياهم هداة مهتدين. لقد كان لهم الفضل، بعد الله سبحانه وتعالى، علينا إذ أتاحوا لنا الفرصة لدراسة العلوم الشرعية وساهموا كثيراً في تشجيعنا وحثنا على التميز وشحذ الهمم، فجزاهم الله تعالى عنا خير الجزاء.

الفهرس

مقدمة 5

تمهيد 9

الفصل الأول 13
أهمية حسن الخلق

الفصل الثاني 21
مقومات حسن الخلق

الفصل الثالث 31
ثمرات حسن الخلق ودوره في بلوغ الدرجات العلا

الفصل الرابع 37
حسن الخلق يُوّلِدُ الراحة النفسية

الفصل الخامس 43
الشباب وحسن الخلق

الفصل السادس 51
حسن الخلق وتحديات الحياة المعاصرة

الفصل السابع 59
العلم وحسن الخلق

الفصل الثامن 69
حسن الخلق وركوب المعاصي

الفصل التاسع 77
نواقض حسن الخلق

الفصل العاشر 87
هل حسن الخلق سجية فطرية تولد مع الإنسان أم سلوك مكتسب؟

خاتمة 93

إهداء 97